سورة الأعراف

بقلم

حسن محمد باجودة

أستاذ الدراسات القرآنية البيانية

جامعة أم القرى بمكة المكرمة

تصريح وزارة الإعلام فرع مكة

إدارة المطبوعات بمكة المكرمة

رقم ٢/٧١/م في ١٤١٥/١/٩ هـ

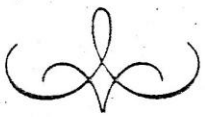

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمـــة

الحمد لله ربّ العالمين ، والصّـلاة والسّـلام علـى أشـرف المرسـلين سيّدنا محمّـد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعـد :

بعونٍ من الله تعالى وفضل ، سبق لنـا أن درسنا السّـور التّاليـة دراسـةً متأمّلـة ، وهى على التّوالى : سورة يوسف ، سـورة مريـم ، سـورة يـس ، سـورة الإسـراء ، سورة الفرقان ، سورة العاديات ، سورة النّازعات ، سورة الحاقّة ، سـورة الرّعـد ، سـورة محمّـد ﷺ ، سـورة الفاتحـة ، سـورة الأحـزاب ، سـورة البقـرة ، سـورة آل عمران ، سورة النّساء ، سورة المائدة ، سـورة الأنعـام . وبفضـل الله تعـالى غطّـت هذه الدّراسات زهاء ثمانية آلاف صفحة ، وشملت أكثر من ثلـث القـرآن الكريـم ، خلال فترةٍ تزيد على الواحد والعشرين عاماً ، وها نحن أولاء نستعين الله تعالى على دراسة سورة الأعراف المكّيّة دراسةً متأمّلة ، وهى الدّراسة الثّامنة عشرة فى سلسـلة هذه التّأمّلات .

وسورة الأعراف من المكّىّ من القرآن الّذى نـزل قبـل هجـرة المصطفـى ﷺ إلى المدينة المنوّرة ، والّذى يُعْنَى بأسس العقيدة من توحيدٍ لله تعالى واتّباعٍ لرسـوله ﷺ وإيمانٍ باليوم الآخر والعمل لما بعـد المـوت ومـا إلى ذلـك مـن قضايـا تتّصـل بأسـس العقيدة وأخذ العبرة من السّابقين المكذّبين الّذين دمّر الله تعالى عليهم تدميراً .

على أنّ ثمّة مسألةً واحدةً غايةً فى الأهمّيّة متعلّقةً بهـذه السّـورة الكريمـة المكّيّـة ، وهى مسألةٌ ذات علاقةٍ برسـالة الإسـلام العالميّـة منـذ فجرهـا . إنّ رسـالة الإسـلام العالميّة نصّت عليها صراحةً هـذه السّـورة الكريمـة وذلـك فـى الآيـة الكريمـة الثّامنـة والخمسين بعد المائة ، الّتى أمر الحقّ جلّ وعلا فيها عبده المصطفى ﷺ بأن يقـول : ﴿ يا أيّها النّاس إنّى رسول الله إليكم جميعاً ﴾ وإنّ رسـالة الإسـلام العالميّـة أمحـت

إليها السّورة الكريمة حينما تحدّثت كثيراً فى هذه الفترة المكّيّة عن بنى إسرائيل الّذين كانوا يسكنون آنذاك منطقة المدينة المنوّرة والّذين احتكّ بهم مباشرةً المصطفى ﷺ والمؤمنون بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة وليس قبلها .

وهذه الدّراسة المتواضعة المتأمّلة لسورة الأعراف المكّيّة لا تختلف فى شىءٍ عن الدّراسات السّابقة لسبع عشرة سورةً كريمة . وبشأن هذه الدّراسة الّتى بذلت فيها كل ما أوتيت من طاقة أقول ما سبق أن قلت عن كلّ الدّراسات المماثلة : إنّى أشهد الله الّذى لا إله إلاّ هو بأنّى لم اشأ لحظةً من اللّحظات أن أحمّل حرفاً واحداً من كتاب اله تعالى فوق ما يحتمل . ومن كان له أىّ ملاحظةٍ على هذا العمل وأىّ عملٍ آخر فلا يتردّد فى إعلانها وتنبيهى ـ جزاه الله تعالى خيراً ـ عليها .

وفى الختام أسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يتفضّل جلّ وعلا بقبوله ، وأن يعفو عمّا بدر منّا من التّقصير ، وألاّ يحرمنا من الأجر ، إنّه جلّ وعلا أكرم مسئول وأعظم مأمول .

﴿ ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا . ربّنا ولا تَحْمِلْ علينا إصْراً كما حملته على الّذين من قبلنا . ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به . واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا. أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ ﴿ سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون . وسلامٌ على المرسلين . والحمد لله ربّ العالمين ﴾ وصلّى الله وسلّم على سيّدنا محمّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين . والحمد لله ربّ العالمين .

مكّة المكرّمة
صبيحة يوم الجمعة ١٤١٤/١١/١٨ هـ
الموافق ١٩٩٤/٤/٢٩ م

كتبه الفقير إلى عفو ربّه
د . حسن محمّد باجودة
أستاذ الدّراسات القرآنيّة البيانيّة
وعميد كلّيّة اللّغة العربيّة
جامعة أمّ القرى بمكّة المكرّمة

التّمهيـــد

بين يدى دراستنا المتأمّلة لسورة الأعراف نودّ أن نشير إلى بعض الأمور :

١ ــ سورة الأعراف مكّيّة كلّها ، قاله الضّحّاك وغيره . وقيل : هى مكّيّة إلاّ خمس آيات أو ثمانى آيات تبدأ بالآية الكريمة الثّالثة والسّتّين بعد المائة . قال تعالى ﴿ واسألهم عن القرية الّتى كانت حاضرة البحر إذ يَعْدون فى السّبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شُرّعًا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم . كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون »[1] ومن البيّن أن الآيات الكريمات الخمس ، والآيات الكريمات الثّلاث بعدها تتحدّث عن بنى إسرائيل . والمعروف أنّ سورة الأعراف هذه من أكثر سور القرآن الكريم حديثاً عن بنى إسرائيل .

٢ ــ عدد آيات السّورة الكريمة مائتان وستّ آيات ، وعدد كلماتها ثلاثة آلاف وثلاثمائة وخمسٌ وعشرون كلمة ، وعدد حروفها أربعة عشر ألفاً ومائتان وعشرة حروف[2] .

٣ ــ تبدأ السّورة الكريمة بالحروف المقطّعة : ﴿ المص ﴾ ويأتى إثر ذلك مباشرةً الانتصار للقرآن الكريم . ويأتى فى نهاية السّورة الكريمة الحديث عن القرآن الكريم كذلك . وبذلك يكون فى السّورة الكريمة ما يشبه ردّ العجز على الصّدر كما يقول البلاغيّون وهو من وسائل الرّبط بين موضوعات السّورة الكريمة وأجزاء الحديث .

---

(١) انظر مثلاً تفسير ابن عطيّة ٥/٤٢٢ والبحر المحيط ٤/٢٦٤ وتفسير ابن كثير ٢/٢٠٠ والجلالين وتفسير البيضاوى ١/٣٤١ والإتقان ١/٤٢ وفتح القدير ٢/١٨٧ وتفسير النّسفى ٢/٤٤ والكشّاف ١/٥٣٨ والدّرّ المنثور ٣/٤١٢ وزاد المسير ٣/١٦٤ وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنّيسابورى . مطبوع بهامش تفسير الطّبرى ٨/٥٦ .

(٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٨/٥٦ .

٤ ــ حديث السّورة الكريمة المكّيّة عن بنى إسرائيل مستفيض فى هذه الفترة المكّيّة المبكّرة من تاريخ الدّعوة الإسلامية . وهذا من الأدلّة على عالميّة الدّعوة الإسلاميّة منذ فجرها . هذا إلى نصّ السّورة الكريمة على عالميّة الدّعوة الإسلاميّة منذ فى فجرها وذلك فى القول على لسان المصطفى ﷺ فى الآية الكريمة الثّامنة والخمسين بعد المائة : ﴿ يا أيّها النّاس إنّى رسول الله إليكم جميعاً ﴾ .

٥ ــ ذكرت سورة الأعراف وحدها على جهة التّفصيل آيات موسى عليه السّلام التّسع وهى العصا واليد والسّنون ونقص الثّمرات والطّوفان والجراد والقمّل والضّفادع والدّم . وذلك فى الآيات الكريمات ١٠٧ و١٠٨ و١٣٠ و١٣٣ .

٦ ــ وجه الشّبه واضحٌ بين بعض آيات سورة الأعراف وبعض الآيات من سورٍ أخر . وبشأن بعض الفروق بين هذه الآيات الكريمات يصحّ أن يكون ثمّة محاولاتٌ لتبيّن الحكمة وراء تلك الفروق . فعلى سبيل المثال جاء النّصّ على الانبجاس فى حقّ الماء الّذى يخرج من الحجر بسبب ضرب موسى عليه السّلام له بعصاه وذلك فى آية سورة الأعراف المكّيّة السّتين بعد المائة . قال تعالى : ﴿ وقطّعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً . وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً ﴾ والانبجاس خروج الماء أوّل الأمر خفيفاً بسبب ضيق الشّقوق ابتداءً . فى حين جاء النّصّ على انفجار الماء فى الآية الكريمة السّتّين من سورة البقرة المدنيّة . قال تعالى : ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ﴾ والانفجار خروج الماء آخر الأمر عنيفاً بسبب اتّساع الشّقوق آخراً . وهكذا تمشّى الانبجاس المتقدّم مع سورة الأعراف المكّيّة المتقدّمة نزولاً قبل الهجرة ، كما تمشّى الانفجار المتأخّر مع سورة البقرة المدنيّة المتأخّرة نزولاً بعد الهجرة .

ويلحق بذلك حديث الآية الكريمة الحادية والسّتّين بعد المائة من سورة الأعراف عن بنى إسرائيل مستعملاً ضمير الغائب لأنّهم غائبون وذلك فى قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حِطّةٌ وادخلوا الباب سجّدًا نغفر لكم خطيئاتكم . سنزيد المحسنين ﴾ فى حين كان حديث الآية الكريمة الثّامنة والخمسين من سورة البقرة مستعملاً ضمير المخاطبين

لأنّ بنى إسرائيل كانوا يسكنون آنذاك منطقة المدينة المنوّرة وذلك فى قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رَغَدًا وادخلوا الباب سجّداً وقولوا حطّةٌ نغفر لكم خطاياكم . وسنزيد المحسنين ﴾ .

٧ ـ جاء نداء بنى آدم فى هذه الصّيغة : ﴿ يا بنى آدم ﴾ خمس مرّاتٍ فى القرآن الكريم كلّه منها أربع مرّاتٍ فى سورة الأعراف وحدها ، وذلك فى الآيات الكريمات ٢٦ و٢٧ و٣١ و٣٥ . والمرّة الخامسة فى الآية الكريمة السّتّين من سورة يس . قال تعالى : ﴿ ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألاّ تعبدو الشّيطان إنه لكم عدوٌّ مبين ﴾ وأمّا صيغة : ﴿ بنى آدم ﴾ مع النّداء وسواه فقد جاءت فى القرآن الكريم سبع مرّات . المرّات الخمس السّابقات إضافةً إلى الآية الكريمة الثّانية والسّبعين بعد المائة من سورة الأعراف . قال تعالى : ﴿ وإذ أخذ ربّك من بنى آدم من ظهورهم ذرّيّتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربّكم قالوا بلى شهدنا . أن تقولوا يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين ﴾ وإضافةً إلى الآية الكريمة السّبعين من سورة الإسراء. قال تعالى : ﴿ ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البرّ والبحر ورزقناهم من الطّيّبات وفضّلناهم على كثيرٍ ممّن خلقنا تفضيلا ﴾ .

٨ ـ ثبت أنّ النّبىّ ﷺ قرأ فى المغرب بالأعراف فى الرّكعتين جميعاً[1] .

٩ ـ نستطيع أن نستنتج مؤهّلات الدّاعية ومقوّمات الدّعوة إلى الله تعالى من سورة الأعراف فى الآيتين الكريمتين الثّانية والسّتّين الّتى جرت على لسان نوح عليه السّلام . قال تعالى : ﴿ أبلّغكم رسالات ربّى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ والثّامنة والسّتّين على لسان هودٍ عليه السّلام . قال تعالى : ﴿ أبلّغكم رسالات ربّى وأنا لكم ناصحٌ أمين ﴾ وهذه المؤهّلات أو المقوّمات هى البلاغ ، والنّصح ، والعلم ، والأمانة .

١٠ ـ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم فى مجال الإنباء بالغيب ما نصّت عليه الآية الكريمة الثّامنة والسّتّون بعد المائة من تقطيع الله تعالى بنى إسرائيل فى الأرض أممًا وجماعات . إنّ هذه الحقيقة زادتها القرون رسوخًا . قال تعالى : ﴿ وقطّعناهم

---

(١) الدّرّ المنثور ٤١٢/٣ وفتح القدير ١٨٧/٢

فى الأرض أممًا منهم الصّالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسّيّئات لعلّهم يرجعون ﴾ .

١١ ـ بسبب حديث سورة الأعراف المستفيض عن وسوسة الشّيطان الرّجيم لآدم وحوّاء عليهما السّلام من أجل إخراجهما من الجنّة ، وعن الدّروس المستفادة من أجل أن يأخذ بنو آدم حذرهم من اللّعين تكاد تكون سورة الأعراف أكثر سور القرآن الكريم حديثًا ودروسًا فى قيام الحضارات وانهيارها . وتتلخّص الدّروس فى قيام الحضارات الطّويلة العمر بإذن الله تعالى فى عفّة الرّجال والنّساء على السّواء . ويومئ إلى الحثّ على العفّة مثل هذا القول فى الآية الكريمة الثّانية والعشرين عن ستر آدم وحوّاء عورتيهما بورق الجنّة رغم أنّهما زوجان . قال تعالى : ﴿ فلمّا ذاقا الشّجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة ﴾ وتتلخّص الدّروس فى انهيار الحضارات بإذن الله تعالى فى فجور الرّجال والنّساء على السّواء. ويومئ إلى التّحذير من الفجور مثل هذا القول فى الآية الكريمة العشرين عن حرص اللّعين على أن يكشف فى الحرام الذّكر للأنثى والأنثى للذّكر عن عورتيهما. قال تعالى : ﴿ فوسوس لهما الشّيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما ﴾ وجاء فى الآية الكريمة السّابعة والعشرين قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشّيطان كما أخرج أبويكم من الجنّة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما . إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . إنّا جعلنا الشّياطين أولياء للّذين لا يؤمنون ﴾ .

١٢ ـ فى هذه الدّراسة المتأمّلة لسورة الأعراف حديثٌ مستفيضٌ عن تطوّر دلالة التّطيّر والطّائر اللّذين جاءت الإشارة إليهما فى حديث الآية الكريمة الحادية والثّلاثين بعد المائة عن آل فرعون . قال تعالى : ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيّئةٌ يطّيّروا بموسى ومن معه . ألا إنّما طائرهم عند الله ولكنّ أكثرهم لا يعلمون ﴾ .

١٣ ـ فى القول : ﴿ يسألونك كأنّك حفيٌّ عنها ﴾ من الآية الكريمة السّابعة والثّمانين بعد المائة الّتى تتحدّث عن قيام السّاعة بلاغةٌ بالحذف . ولمّا كان الكلام فى الأصل فى مثل هذه الصّورة : يسألونك عنها كأنّك حفيٌّ بها . فكأنّ الجارّ

والمجرور الواحد : ﴿ عنها ﴾ قام باقتدار ، بسبب تأخّره عن موضعه وشغله موضع الجارّ والمجرور الآخر ، بدور الجارّين والمجرورين معًا ﴿ عنها ﴾ و: ﴿ بها ﴾ .

١٤ ــ إنّ لفظ : ﴿ قريب ﴾ فى الجزئيّة الكريمة الأخيرة من الآية الكريمة السّادسة والخمسين قال تعالى : ﴿ إنّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين ﴾ يلبّى من ناحيةٍ حاجة النّفس الّتى تنتظر بشوقٍ معنىً يتعلّق برحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شىءٍ على نحو ما قرّرت السّورة الكريمة فى الآية الكريمة السّادسة والخمسين بعد المائة . وهذا المعنى الّذى لبّى حاجة النّفس هو قرب الرّحمة من المحسنين . ويقرّر لفظ ﴿ قريب ﴾ الّذى جاء فى صيغة التّذكير من ناحيةٍ أخرى حقيقة قرب رحمة الله تعالى البرّ الرّحيم الأقرب إلى الإنسان من حبل الوريد . إنّ قرب الرّحمة من قرب الله تعالى . وكأنّ لفظ : ﴿ قريب ﴾ الّذى جاء فى صيغة التّذكير متمشّيًا مع لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ وليس فى صيغة التّأنيث متمشّيًا مع لفظ : ﴿ رحمة ﴾ قد راعى الأهمّ وهو لفظ الجلالة : ﴿ الله ﴾ وهذا الأهمّ هو قرب الرّحمة . وإنّما لم يراع لفظ الرّحمة وبذلك لم يجىء القول : إنّ رحمة الله قريبةٌ من المحسنين ، لأنّ صيغة التّأنيث تقف عند إفادة مطلق وجود الرّحمة ، ومطلق وجود الرّحمة أفادته لفظة الرّحمة ذاتها . إنّ لفظ : ﴿ قريب ﴾ أكّد وجود الرّحمة من ناحية ، وأكّد قرب هذه الرّحمة من ناحيةٍ أخرى لمراعاته لفظ الجلالة فى صيغة التّذكير . إنّ قرب الرّحمة من قرب الله تعالى الّذى وسعت رحمته كلّ شىءٍ جلّ وعلا .

١٥ ــ مّما يلفت الانتباه فى الآية الكريمة العشرين بعد المائة : ﴿ وأُلْقى السّحرة ساجدين ﴾ مجىء الجملة فى صيغة المبنى للمجهول أو المفعول . وكأنّ قوّةً خفيّةً بسبب الحقّ الّذى اتّضح هى الّتى ألقت بالسّحرة ساجدين لله ربّ العالمين لفرط انبهارهم بلَقْف عصا موسى عليه السّلام ما يقلبون بتمويههم وكذبهم .

١٦ ــ فى قول الحقّ جلّ وعلا فى الآيتين الكريمتين السّابعة والثّامنة بعد المائة . قال تعالى : ﴿ فألقى عصاه فإذا هى ثعبانٌ مبين . ونزع يده فإذا هى بيضاء للنّاظرين﴾ اكتفاءٌ بذكر الشّقّ الأوّل لكلٍّ من المعجزتين . إنّ إلقاء العصا يتلوه أخذ موسى عليه السّلام لها كي تعود عصًا مرّةً أخرى . وإنّ نزع موسى عليه السّلام يده

من تحت إبطه فى المرّة الأولى كى تكون بيضاء للنّاظرين يتلوه نزعها مرّة أخرى كى تعود أدماء كما كانت .

ويلاحظ أنّ العصا هنا تتحوّل ثعبانًا مبينًا . ويتأكّد هذا المعنى حينما يلقى موسى عليه السّلام عصاه فتتحوّل ثعبانًا مبينًا حقًّا فقد ابتلع كلّ ما سال به الوادى من حيّاتٍ وثعابين ركب بعضها بعضًا بفعل سحر السّحرة أعين النّاس . وننتقل عائدين إلى تحوّل عصا موسى علسه السّلام حيَّةً خفيفة تهتز وتتحرّك فذلك معنى قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة النّمل[١] : ﴿ وألق عصاك . فلمّا رآها تهتزّ كأنّها جانٌّ ولّى مدبرًا ولم يعقّب ﴾ ومعنى قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة القصص[٢] : ﴿ وأن ألق عصاك . فلمّا رآها تهتزّ كأنّها جانٌّ ولّى مدبرًا ولم يعقّب ﴾ ويصحّ أن نفهم أنّ الاهتزاز أو الاضطراب يمثّل أولى مراحل حركة الحيّة المنقلبة عن العصا . كما يصحّ أن نفهم أنّ هذه المرحلة من حركة الحيّة أعقبتها مرحلةٌ أخرى هى مرحلة سعي الحيّة . جاء فى سورة طه[٣] قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿ فألقاها فإذا هى حيّةٌ تسعى﴾.

ونستطيع أن نفهم من هذا التّطوّر فى الحركة من الاهتزاز إلى السّعى إلى السّرعة المذهلة ، ومن التّطوّر فى الحجم من الجانّ بمعنى الحيّة الخفيفة إلى الحيّة الّتى من معانيها النّوع من الحيّات الصّغيرة الحجم البطيئة الحركة ، إلى الثّعبان السّريع الحركة، نستطيع أن نفهم من هذا التّطوّر مظهرًا من مظاهر رحمة البرّ الرّحيم بعبده المصطفى موسى عليه السّلام .

١٧ ـ سورة الأعراف المكّيّة نزلت ـ مثلاً ـ قبل سورة الأنعام المكّيّة وسورة الشّعراء المكّيّة[٤] وممّا قد يتمشّى مع النّزول المتقدّم للسّورة الكريمة الإدغام لجملة يضّرّعون فى قول الحقّ جلّ وعلا[٥] : ﴿ وما أرسلنا فى قريةٍ من نبيٍّ إلاّ أخذنا أهلها بالبأساء والضّرّاء لعلّهم يضّرّعون ﴾ وممّا قد يتمشّى مع النّزول المتأخّر للسّورة الكريمة فكّ التّضعيف لجملة يتضرّعون فى قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الأنعام[٦]: ﴿ ولقد أرسلنا إلى أممٍ من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضّرّاء لعلّهم يتضرّعون ﴾ .

---

(١) الآية ١٠ (٢) الآية ٣١ (٣) الآية ٢٠

(٤) انظر الإتقان ١/٤٢ و٤٣ (٥) الآية ٩٤ (٦) الآية ٤٢

ويتعلّق بالنّزول المتقدّم استعمال الضّمير العائد إلى آل لوطٍ عليه السّلام من باب الاختزال وذلك فى قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الأعراف[١] : ﴿ وما كان جواب قومه إلاّ أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنّهم أناسٌ يتطهّرون ﴾ فى حين جاء النّصّ على آل لوطٍ فى الآية الكريمة السّادسة والخمسين من سورة النّمل الّتى تأخّر نزولها عن سورة الأعراف[٢] قال تعالى[٣] : ﴿ فما كان جوابَ قومه إلاّ أن قالوا أخرجوا آل لوطٍ من قريتكم إنّهم أناسٌ يتطهّرون ﴾ .

وقد يبدو ضربٌ من ضروب الاختزال حينما تتمّ المقارنة بين هذه الآيات الكريمات من سورة الأعراف[٤] . قال تعالى : ﴿ قال الملأ من قوم فرعون إنّ هذا لساحرٌ عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين . يأتوك بكلّ ساحرٍ عليم . وجاء السّحرة فرعون قالوا إنّ لنا لأجْرًا إن كنّا نحن الغالبين . قال نعم وإنّكم لمن المقرّبين ﴾ وبين هذه الآيات الكريمات من سورة الشّعراء المتأخّرة نزولاً[٥] قال تعالى[٦] : ﴿ قال للملأ حوله إنّ هذا لساحرٌ عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون . قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين . يأتوك بكلّ سحّارٍ عليم . فَجُمِع السّحرة لميقات يومٍ معلوم . وقيل للنّاس هل أنتم مجتمعون . لعلّنا نتّبع السّحرة إن كانوا هم الغالبين. فلمّا جاء السّحرة قالوا لفرعون أئنّ لأجرًا إن كنّا نحن الغالبين . قال نعم وإنّكم إذًا لمن المقرّبين ﴾ .

١٨ ـ إذا كانت سورة الأنعام وسورة الإسراء قد تضمّنتا آياتٍ فى الحكمة اشتملت على مجموعةٍ من الأحكام غير قابلةٍ للنّسخ فى سائر الشّرائع فإنّ سورة الأعراف كذلك تضمّنت هى الأخرى مجموعةً من آيات الحكمة[٧] وهذه الآيات الكريمات تبدأ بالآية الكريمة التّاسعة والعشرين وتنتهى بالآية الكريمة الثّالثة والثّلاثين. والآية الكريمة الأخيرة تحصر المحرّمات الّتى حرّمها الله تعالى فلا مكان لمبتدعٍ فى

---

(١) الآية ٨٢ (٢) انظر الإتقان ١/٤٢ و٤٣
(٣) سورة النّمل ٥٦ (٤) الآيات ١٠٩ ـ ١١٤
(٥) انظر الإتقان ١/٤٢ و٤٣ (٦) سورة الشّعراء ٣٤ ـ ٤٢
(٧) انظر الجواب الصّحيح لمن بدّل دين المسيح ١/٣

الدّين يظنّ أو يوهم أنّ ثمّة نقصاً فى الدّين . قال تعالى[١] : ﴿ قل إنّما حرّم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحقّ وأن تشركوا بالله ما لم ينزّل به سلطانًا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون ﴾ .

١٩ ـ فى الآية الكريمة التّاسعة والتّسعين بعد المائة جاء قول الحقّ جلّ وعلا خطابًا للمصطفى ﷺ : ﴿ خذ العفو وأمر بالعُرْف وأعْرِض عن الجاهلين ﴾ فثمّة أمرٌ بالأخذ بالعفو وباليسر من أخلاق النّاس ، وأمر بالمعروف شرعًا وعقلاً ، وأمرٌ بالإعراض عن الجاهلين . واللّطيف فى الأمر أنّ الآيات الثّلاث الأخيرات فى السّورة الكريمة تتمشّى مع هذه الأوامر الثلاثة . إنّ قمّة الأخذ بالعفو وباليُسْر من النّاس أن يتلوا القرآن الكريم فعلينا أن نستمع له وننصت لعلّ رحمة الله تعالى الواسعة تشملنا. قال تعالى[٢] : ﴿ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلّكم تُرْحَمون ﴾ وإنّ قمّة الامتثال للأمر بالمعروف ذكر الله تعالى الّذى لم يضع الشّارع الحكيم حدًّا له لسهولته فى كلّ الأوقات والأحوال . قال تعالى[٣] : ﴿ واذكر ربّك فى نفسك تضرّعاً وخيفةً ودون الجهر من القول بالغدوّ والآصال ولا تكن من الغافلين ﴾ وإنّ قمّة الجهّال الّذين أمِرْنا بالإعراض عنهم هم المستكبرون عن عبادة الله تعالى وقد أكّدت هذا المعنى آخر آيات السّورة الكريمة الّتى رفعت من شأن مفردى الله تعالى بالعبادة ، المنزّهين له جلّ وعلا عن كلّ ما ألحقه به الظّالمون تعالى علوًّا كبيرًا ، المطبّقين أركان الإسلام وفى مقدّمتها الصّلاة الّتى عبّر عنها بواحدٍ من أهمّ أركانها وهو السّجود لله ربّ العالمين . قال تعالى[٤] : ﴿ إنّ الّذين عند ربّك لا يستكبرون عن عبادته ويسبّحونه وله يسجدون ﴾ وبقدر رفع الآية الكريمة من شأن المخبتين

---

(١) سورة الأعراف ٣٣
(٢) سورة الأعراف ٢٠٤
(٣) سورة الأعراف ٢٠٥
(٤) سورة الأعراف ٢٠٦

إلى الله تعالى الخاشعين الخاضعين الذّليلين حظُّها من شأن المستكبرين عن عبادة الله تعالى المستنكفين المشركين الّذين يمثّلون أحطّ أنواع الجهل وأسوأ فئات الجهّال .

٢٠ ـ من أهمّ ما عنيت به الدّراسة المتأمّلة لسورة الأعراف ولكلّ السّور الأخرى محاولة تبيين مظاهر التّرابط الواضحة والخفيّة بين موضوعات السّورة الكريمة، وآيات الموضوع الواحد ، وجزئيّات الآية الكريمة الواحدة .

ونتحوّل ، مستعينين بالله تعالى ، إلى الدّراسة المتأمّلة .

الدّراسة المتأمّلة لسورة الأعراف

[١]

« الرّسول ينذر بالقرآن الكريم الكافرين ويبشّر المؤمنين .
وللكافرين عذابٌ أليم ، وللمؤمنين ثوابٌ عظيمٌ فى الأولى والآخرة »

الآيـــــات (١ ـ ١٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ
لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم
مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾
وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْهُمْ قَآئِلُونَ
﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا
ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾
وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟
أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ
فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟

القرآن الكريم هو النّصّ الوحيد الّذى يتحقّق فيه التّوازن العجيب بين القدرة على إرضاء العقل بفصوص حكم المعانى وإشباع النّفس بجميل تركيب المبانى . إنّه يجمع خير ما فى كلٍّ من النّثر والشّعر . إنّ خير ما فى النّثر الحرّية المطلقة فى التّعبير عن المعانى الموزونة بمعيار العقل . وإنّ خير ما فى الشّعر تدفّق المعانى فى طريقةٍ شاعريّة، تشبع النّفس ، فكأنّ المعانى قطرات ماء السّماء ، وتطرب السّمع ، فكأنّ انسياب الكلام الجدول الرّقراق الّذى يملك عليك بصرك وسمعك بجماله الخلاّب ، وخريره الأخّاذ . وإنّ هذا التّوازن العجيب الّذى لا يتحقّق بهذا القدر إلاّ فى القرآن الكريم ليملك عليك عقلك بمعانيه العميقة ومراميه القصيّة ، ويأسر نفسك بألفاظه العذبة وعباراته الرّشيقة ، ويأخذ مشاعرك بتلاؤم أصواته ، وحلو جرسه . وإنّ العقل مهما يكن عميقاً غوره فإنّ معاني القرآن الكريم أشدّ عمقًا . وإنّ النّفس مهما تكن متدفّقًا شعورها فإنّ جمال القرآن الكريم أفتن ، وسلامة نظمه أعذب ، وحلاوة جرسه ألطف ، وتدفّق مائه أشدّ ، وجلال رونقه آنق .

لنتّخذ من الآيات العشر فى هذا القسم رمزًا لهذه الدّراسة . الآية الكريمة الأولى عبارةٌ عن حروفٍ مقطّعة : ﴿ المص ﴾ يصحّ أن تكون امتدادًا للتحدّى بالقرآن الكريم الّذى نزل بلسانٍ عربىّ مبين والّذى تتألّف كلماته من هذه الحروف . وعلى عادة السّور الّتى تبدأ بهذه الحروف المقطّعة فى الانتصار للقرآن الكريم يأتى فى الاية الكريمة الثّانية الانتصار للقرآن الكريم وكذلك فى الآية الكريمة الثّالثة . إنّ الحديث عن هذا الكتاب العزيز ممتعٌ بإرضائه العقل وإشباعه النّفس . فالقرآن الكريم كتابٌ ، والقرآن الكريم أُنْزل إلى المصطفى ﷺ من ربّ العالمين . ولمّا كان هذا الكتاب العزيز كتاب هدايةٍ أوّلاً وآخرًا فقد كان النّصّ على هذه الغاية مع مراعاة طبيعة المرحلة المكّيّة الحرجة فى حقّ المصطفى ﷺ والمؤمنين القليلى العدد والعدّة آنذاك . لذا كان الإنذار بالقرآن الكريم متقدّمًا على التّبشير به ، كما كان خطاب المصطفى ﷺ بقصد نفى الحرج عن صدره عليه الصّلاة والسّلام فى هيئة جملة معترضة بين تقرير نزول القرآن الكريم وبين تبيين الهدف من إنزاله . وإنّ فى ذكر

الإنذار تنبيها على التّبشير الملحوظ ، وإنّ فى النّصّ على المؤمنين تنبيهاً على الكافرين غير المنصوص عليهم . وفى الآية الكريمة الثّالثة يؤمر النّاس جميعًا باتّباع القرآن الكريم ويُنْهَوْن عن اتّباع الشّياطين واتّخاذهم أولياء . وتجاه إصرار أهل قرية مكّة على الكفر والتّكذيب تشير الآيتان الكريمتان الرّابعة والخامسة إلى القرى الكثيرة السّابقة الّتى دمّرها الله تعالى تدميرًا بسبب وقوفها من رسل الله تعالى إليهم موقف كفّار مكّة من رسول الله تعالى إليهم . وتبعًا لتحوّل الكافرين فى الجراءة على الله تعالى من السّيّىء إلى الأسوأ يكون تحوّل العذاب من السّيّىء إلى الأسوأ ، من مجىء العذاب بياتًا وليلاً إلى مجىء العذاب فى القائلة ونهاراً . ويعترف الكافرون باستحقاقهم العذاب فعلى كفّار مكّة أن يتّعظوا . وبعد الهلاك يكون البعث فالحساب . وما دام الكافرون قد اعترفوا باستحقاقهم العذاب فى الأولى فذلك معناه أنّهم معترفون باستحقاقهم له فى الآخرة لذا اكتفى السّياق بالاعتراف فى الدّنيا . وتبيّن الآية الكريمة السّابعة علم الله تعالى المحيط بعالمى الغيب والشّهادة ، وتبيّن الآيتان الكريمتان الثّامنة والتّاسعة الحساب العادل والجزاء الأوفى . أمّا آخر آيات القسم فتبيّن فضل الله تعالى على النّاس بتمكينهم فى الأرض ووجوب الشّكر لله تعالى على ذلك .

الآيتان رقم (١ ، ٢)

قال تعالى : ﴿ المص . كتابٌ أُنْزِل إليك فلا يكن فى صدرك حَرَجٌ منه لتنذر به وذِكْرَى للمؤمنين ﴾ .

تبدأ السّورة الكريمة بالحروف المقطّعة فى الآية الكريمة الأولى : ﴿ المص ﴾ وسورة الأعراف واحدةٌ من تسع وعشرين سورةً تبدأ بهذه الحروف المقطّعة . وأولى هذه السّور سورة البقرة ، وقد أفضنا فى الحديث عن هذه الحروف المقطّعة فى أثناء دراسة الآية الكريمة الأولى من سورة البقرة : ﴿ الم ﴾ ومن الآراء القيّمة بشأن هذه الحروف الرّأي الّذى يذهب إلى أنّها امتدادٌ للتّحدّى بالقرآن الكريم ، ففيها التّنبيه إلى أنّ القرآن الكريم تتألّف كلماته من هذه الحروف الّتى تتألّف منها كلمات

العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم . ولكن : أين الثّرى من الثّريّا كما يقولون.

وسورة الأعراف المكّيّة الّتى تبدأ بهذه الحروف المقطّعة شأنها كشأن سائر السّور الّتى تبدأ بهذه الحروف فى الانتصار للقرآن الكريم . إنّ الانتصار للقرآن الكريم يأتى على الفور فى الآية الكريمة الثّانية الّتى تبيّن أنّ القرآن الكريم كتابٌ أنزله الله تعالى إلى حبيبه المصطفى ﷺ لإنذار الكافرين بالعذاب الأليم وتبشير المؤمنين بالنّعيم المقيم . لقد عبّرت الآية الكريمة عن هذه المعانى فى أسلوبها المعجز. إنّ الآية الكريمة تنبّه بطريقة نظمها على طبيعة الفترة المكّيّة الحرجة فى حقّ الدّعوة الإسلاميّة حينما كانت جزيرة العرب آنذاك تموج بالكفر وعبادة الأوثان ، وحينما كانت الكعبة المشرّفة ذاتها تحاط بالأصنام والأنصاب .

إنّ فى تقديم الآية الكريمة ما يخصّ الكافرين مِنْ نِذارة وتأخير ما يخصّ المؤمنين مِنْ بشارة ، تنبيهًا على المهمّة الصّعبة الّتى سيتجشّمها المصطفى ﷺ حينما يدعو أولئك الكافرين إلى الإيمان . وإنّ من أكبر الأدلّة فى الآية الكريمة على هذه المهمّة الصّعبة مجىء هذه الجملة المعترضة : ﴿ فلا يكن فى صدرك حَرَجٌ منه ﴾ إنّ أصل الكلام ، والله تعالى أعلم ، ﴿ كتابٌ أنزل إليك... لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ . وإنّ هذه الجملة المعترضة بين يدي إنذار المصطفى ﷺ الكافرين بالقرآن الكريم ترمى إلى إزالة ما قد يكون فى صدر المصطفى ﷺ للإنذار بالقرآن الكريم مِنْ ضيق، بل حرج .

والحقيقة أنّ هذه الجملة المعترضة : ﴿ فلا يكن فى صدرك حرجٌ منه ﴾ يلفت نَظَرَنا بشأنها أمران اثنان مهمّان . أحدهما لفظة ﴿ حرج ﴾ وآخرهما النّهي فى القول على لسان ربّ العزّة خطابًا له ﷺ : ﴿ فلا يكن فى صدرك .... ﴾ ومن البيّن أنّا أشرنا إلى الحرج ابتداءً وذلك عن قصد . إنّ لفظة حرج فى الآية الكريمة تذكّرنا بهذه الآية الكريمة من سورة الأنعام[1] قال تعالى : ﴿ فمن يُرِدِ الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام . ومن يُرِدْ أن يضلّه يجعل صدره ضيّقًا حَرَجًا كَأَنّما يصَّعّد

---

(١) الآية ١٢٥ .

فى السّماء .كذلك يجعل اللهُ الرِّجْسَ على الّذين لا يؤمنون ﴾ إنّ صدر هذا الكافر ضيّقٌ بطبعه . وإنّ هذا الصّدر الضيّق أو المكان الضّيّق امتلأ بصنوف الأذى وأنواع القذى كيفما اتّفق . ومن هنا كان الصّدر ليس ضيّقًا فحسب ولكنّه حرج ، ومن هنا قيل للمكان حرجٌ وحراجٌ دليلاً على المكان الضّيّق الممتلئ كيفما اتّفق بأنواع الأشياء الّتى لا تكاد توقع على العين لذّة ولا توصل إلى النّفس بهجة . إنّ هذا الحرج أو الحراج فى المحسوسات هو الحرج فى المعنويّات.وإنّ آية سورة الأعراف لا تريد لهذا الحرج أن يكون فى صدر المصطفى ﷺ . وبما أنّ الصّدر يتّسع للقلب والفؤاد والنّفس وما إلى ذلك فكأنّ الجزئيّة الكريمة تريد أن تنفي الحرج مطلقًا وتنقّي صدر المصطفى ﷺ منه تمامًا .

والّذى عمّق نفي الحرج جملة النّهي خطابًا من ربّ العزّة لحبيبه المصطفى ﷺ : ﴿ فلا يكن فى صدرك حرجٌ منه ﴾ والمعنى : فلا يكن فى صدرك أيّها الرّسول الكريم والنّبىّ العظيم حرجٌ من القرآن الكريم وتبليغه للنّاس وإنذار الكافرين به ، بسبب ردّ الكافرين العنيف عليك ، وصدودهم الشّديد عنك ، وأذاهم الكبير لك . وإنّ فى ذكر الإنذار بعد ذلك مباشرةً : ﴿ فلا يكن فى صدرك حَرَجٌ منه لتنذر به﴾ تنبيهًا إلى دور الإنذار المتقدّم على التّبشير فى هذه المرحلة المبكّرة من تاريخ الدّعوة الإسلاميّة ، وإيماءً إلى ضخامة هذه المهمّة ممّا قد يسبّب الضّيق بل الحرج فى صدر المصطفى ﷺ . ولكنّه عليه الصّلاة والسّلام أحد أولى العزم من الرّسل الخمسة ، بل زعيمهم . وإنّ فى سعي الجزئيّة الكريمة إلى طرد الحرج تنبيهًا إلى أنّ هذه المهمّة الشّاقّة ممّا يصحّ معه الحرج فى صدر الدّاعى إلى الله تعالى بسبب تعنّت المدعوّين وإرادة المشقّة للدّاعى إلى الله تعالى . وفى سبيل تمثّل الحرج الممكن تسلّله إلى صدر المصطفى ﷺ فى إمكاننا تمثّل الجزيرة العربيّة آنذاك بحرًا متلاطمًا بأمواج الشّرك وعبادة الأصنام ، وقد بلغ حبّ الأصنام والأوثان والأنصاب الشّغاف من كلّ قلب . وإنّ فرط حماس المصطفى ﷺ للدّعوة إلى الله تعالى اصطدم بفرط حماس المشركين لشركهم ، وقد نجم عن ذلك فرط حزنٍ من المصطفى ﷺ للدّرجة

الّتى كاد يموت بسببها فنهاه الله تعالى عن ذلك فى مثل قوله عزّ من قائل[١] : ﴿فلعلّك باخعٌ[٢] نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ وقوله تعالى[٣] : ﴿ لعلّك باخعٌ نفسك ألاّ يكونوا مؤمنين ﴾ كما بيّن ربّ العزّة له ﷺ أنّ عليه البلاغَ وَحْدَه . قال تعالى[٤] : ﴿ فإنّما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ .

ولّما كان إنذار المصطفى ﷺ المشركين بالقرآن الكريم كى يتحوّلوا مؤمنين يُبَشَّرون بالنّعيم المقيم فى جنّات النّعيم وكانت الآية الكريمة قد تحدّثت عن المشركين المنذَرين فكأنّ حديث الآية الكريمة عن المؤمنين بقصد تبشيرهم فى مقابل إنذار الكافرين وكأنّ أصل الكلام : لتنذر به الكافرين وتبشّر به المؤمنين . والملاحظ على القول : ﴿ لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴾ أنّ جملة : ﴿ لتنذر به ﴾ استغنت بذكر المؤمنين بعد ذلك عن ذكر الكافرين . وفى مقابل الإستغناء بالمؤمنين عن الكافرين كان الاستغناء بالنّذارة عن ذكر البشارة فى القول : ﴿ وذكرى للمؤمنين ﴾ والتّجاوز إلى مدًى أبعد وأفقٍ أرحب بتقرير أنّ القرآن الكريم ذكرى للمؤمنين وموعظةٌ لهم وشفاءٌ لما فى صدورهم وقد قال عزّ من قائل[٥] : ﴿ وذكّر فإنّ الذّكرى تنفع المؤمنين ﴾ .

وما المعنى البعيد للقول فى حقّ القرآن الكريم وفق المعنى الّذى تبيّن : ﴿وذكرى للمؤمنين ﴾ ؟ التّأكيد لطرد الحرج من صدر المصطفى ﷺ لأنّ الّذين يُذَكّرون بالقرآن الكريم ويوعظون به هم الّذين سبق لهم أن آمنوا بهذا القرآن الكريم ، واعتنقوا دين الإسلام ، واتّبعوا خير الأنام ﷺ . إنّ فى النّصّ على الذّكرى الّتى لا تكون إلاّ للمؤمنين بشارةً وزيادة . أمّا البشارة المفهومة ففيها الدّليل على أنّ بلاغ المصطفى ﷺ قومه قد آتى أُكُلَه بإيمان من شرح الله تعالى صدره لذلك ، وأمّا الزّيادة أو العِلاوة المنطوقة فى القول : ﴿ وذكرى ﴾ ففيها الدّليل على أنّ بذرة الإيمان قد غدت دوحةً عميقةَ الجذور ، قويّة السُّوق ، وارفة الظلال ، شهيّة الثّمار، و لله الحمد والمنّة .

---

(١) سورة الكهف ٦ (٢) باخعٌ : مهلك . (٣) سورة الشّعراء ٣ .
(٤) سورة الرّعد ٤٠ . (٥) سورة الذّاريات ٥٥ .

ولّما كانت النّذارة قد أسلمت إلى البشارة الّتى أسلمت بدورها إلى الذّكرى ، وكان الإيمان والذّكرى بواسطة هذا الكتاب العزيز الّذى يهدى للطّريقة الّتى هى أقوم فقد تحدّثت الآية الكريمة التّالية فى هذا المعنى فإلى .

الآيـــة رقم (٣)

قالى تعالى : ﴿ اتّبعوا ما أُنْزِل إليكم من ربّكم ولا تتّبعوا من دونه أولياء . قليلاً ما تذكّرون ﴾ .

قدّمت الآية الكريمة السّابقة النّذارة فى الذّكر على البشارة تنبيهاً إلى مهمّة المصطفى ﷺ الشّاقّة فى تلك الفترة المكّيّة . وإنّ ذكرها للمؤمنين فى نهايتها ، وهم الثّمرة اليانعة لدعوة المصطفى ﷺ النّاس إلى دين الله تعالى ، رشّح للحديث عن المؤمنين أوّلاً فى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها . إنّ المطلوب من النّاس ، وفى مقدّمتهم المؤمنون ، أن يتّبعوا ما أُنْزِل إليهم من ربّهم جلّ وعلا : ﴿ اتّبعوا ما أُنْزِل إليكم من ربّكم ﴾ ويلاحظ أنّ المطلوب من المؤمنين مطلق الاتّباع لما أُنْزِل إليهم من ربّهم جلّ وعلا من قرآن كريم وسنّةٍ مطهّرة[1] كما يلاحظ أنّ هؤلاء المؤمنين يخاطبون هنا بالقول : ﴿ اتّبعوا ما أنزل إليكم من ربّكم ﴾ فى حين جاء فى الآية الكريمة السّابقة خطابًا للمصطفى ﷺ : ﴿ كتابٌ أنزل إليك ﴾ والمعنى أنّ القرآن الكريم أُنْزِل إلى المصطفى ﷺ إيحاءً واصطفاءً فى حين أُنْزِل لغاية هى الهداية إلى الطّريقة الّتى هى أقوم . وإنّ المؤمنين الّذين استجابوا لله تعالى ولرسوله ﷺ وحقّقوا الغاية الّتى أنزل الله تعالى من أجلها القرآن الكريم أهلٌ لأن يقال لهم إنّ القرآن الكريم قد أنزله ربّ العزّة إليهم ومن أجلهم . وانظر إلى لفظة الرّبّ فى خطاب المؤمنين : ﴿ اتّبعوا ما أنزل إليكم من ربّكم ﴾ تلك اللّفظة الّتى تذيع شذا الحبّ وتشيع جوّ الودّ وتنبّه إلى معنى الخصوص . إنّ هذه المعانى اللّطيفة للفظ الرّبّ الحبيب إلى كلّ نفس مؤمنة من متعلّقات المعنى الأصليّ لهذا اللّفظ وهو تربية الله تعالى عباده بنعمه وآلائه . إنّك أيّها الإنسان قد خصّك الله تعالى بجملةٍ من المواهب

---

(١) تفسير النّسفى ٢/٤٤ .

وفى مقدّمتها الملكة الفكريّة . وإنّ ربّك قد أنزل إليك أشرف كتبه كى يهديك إلى الطّريقة الّتى هى أقوم . وإنّ واجبك أن تختار الخير لنفسك وأن تبادل الإحسان بالإحسان وذلك باتّباع هذا القرآن الّذى أنزله الله تعالى إليك هدفاً وغاية ، والّذى أنزله الله تعالى إلى حبيبه المصطفى ﷺ آلةً وآية .

وفى مقابل الأمر باتّباع القرآن الكريم الّذى أنزله الله تعالى الرّبّ البرّ الرّحيم إلى عباده ثمّة النّهي عن اتّباع الأولياء من دونه جلّ وعلا من شياطين الجنّ والإنس الّذين لا يألون النّاس خبالاً ولا يقصّرون فى الاجتهاد لإلحاق كلّ أذًى بهم ، وبخاصّةٍ فى مجال العقيدة بتوريطهم فى ارتكاب الذّنب الّذى لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك معه جلّ وعلا سواه .

وفى مقابل تذكّر المؤمنين واتّعاظهم على نحو ما جاء فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ وذكرى للمؤمنين ﴾ تنفى الآية الكريمة الّتى نحن بصددها الذّكرى والموعظة عن الّذين اتّخذوا الشّياطين أولياء من دون الله تعالى : ﴿ قليلاً مّا تذكّرون ﴾ قليلاً : مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته . أى تذكّرون تذكّرًا قليلاً . وما حرفٌ لتأكيد القلّة[1] وقد جاء فى الآية الكريمة الثّلاثين من هذه السّورة الكريمة فى حقّ الّذين فتنهم الشّيطان الرّجيم واتّبعوه القول : ﴿ إنّهم اتّخذوا الشّياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنّهم مهتدون ﴾ والأولياء جمع الوليّ . ومن معاني الوليّ الصّديق، والنّصير ، والصّاحب ، والحليف ، وابن العمّ ، والجار . وكلّ هذه المعانى من الوَلْي بمعنى القُرْب . إنّ الواو واللاّم والياء أصلٌ صحيحٌ يدلّ على قرب[2] .

ومن بين الّذين لا يتذكّرون ولا يتّعظون كفّار مكّة الّذين بعث الله تعالى فيهم خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ . وبقصد حمل أهل هذه القرية على الاستجابة لدعوة الحقّ وترك العناد يكون إنذارهم بالقرى السّابقة الّتى أهلكها الله تعالى بسبب كفرها فعلى كفّار مكّة أن يستفيدوا من هذا الدّرس قبل فوات الأوان . والآيتان الكريمتان التّاليتان فى هذا الدّرس وهاتان هما .

---

(١) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٢٩٣/٤

(٢) انظر معجم مقاييس اللّغة لابن فارس : « ولى » ١٤١/٦ ومفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « ولى » ٥٣٣ .

الآيتان رقم (٤ ، ٥)

قال تعالى : ﴿ وكم من قريةٍ أهلكناها فجاءها بأسنا بياتًا أو هم قائلون . فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلاّ أن قالوا إنّا كنّا ظالمين ﴾ .

ما أكثر القرى الّتى دمّرها الله تعالى تدميراً بسبب تكذيب أهلها رسول الله تعالى إليهم على غرار تكذيب أهل مكّة رسول الله تعالى إليهم وقد قال عزّ من قائل[1] : ﴿ وما كنّا معذّبين حتّى نبعث رسولا ﴾ وكم هنا هى الخبريّة الّتى تفيد الكثرة ، والمراد بالقرية أهلها . وانظر إلى جملة : ﴿ جاء ﴾ فى القول فى الآية الكريمة الأولى: ﴿ فجاءها بأسنا ﴾ وفى الآية الكريمة الأخرى : ﴿ إذ جاءهم بأسنا﴾ بمعنى المجىء الفعلىّ للبأس بمعنى العذاب[2] إنّ جملة جاء لا تستعمل فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب الزّمانيّ أو المكانىّ أو النّفسيّ . وهى هنا تفيد المجىء الفعلي لذلك العذاب مكان أولئك الظّالمين فى قريتهم أو مدينتهم . وتختار الآية الكريمة وقتين للعذاب يتعلّق أحدهما باللّيل وآخرهما بالنّهار ، ويتّسم كلٌّ من الوقتين المختارين بكونه الوقت الّذى ترتبط به الرّاحة والغفلة بأكثر من غيره من الأوقات . قال تعالى : ﴿ فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون ﴾ إنّ معنى ﴿ بياتًا ﴾ ببساطة ليلاً . وإنّ معنى ﴿ أو هم قائلون ﴾ ببساطة أو هم نائمون فى القائلة . والقائلة نصف النّهار . والقيلولة نومة نصف النّهار ، وهى القائلة[3] والمقيل والقيلولة: الاستراحة نصف النّهار وإن لم يكن معها نوم[4] .

والحقيقة أنّ الإشارة إلى البيات والقيلولة فى الآية الكريمة واختيار هذين الوقتين بالذّات من الأدلّة على أنّ هذا الكتاب العزيز الّذى نزل بلسانٍ عربىٍّ مبين ، قد خاطب العرب ، مادّة الإسلام الأولى ، باللّغة الّتى يفهمون . إنّ لفظة البيات ذات علاقةٍ بالبيت مأوى الإنسان باللّيل ، لأنّه يقال بات أقام باللّيل كما يقال ظلّ

---

(١) سورة الإسراء ١٥ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٠١ والجلالين .
(٣) لسان العرب : « قيل » .
(٤) لسان العرب : « قيل » .

بالنّهار[١] وبيّت الأمر إذا دبّره ليلاً . قال الله تعالى ﴿ إذ يبيّتون ما لا يرضى من القول ﴾ أى حين يجتمعون فى بيوتهم ليلاً[٢] ويقال لكلّ فعلٍ دُبِّر فيه باللّيل بُيِّت[٣] والبيات والتّبييت قصد العدوّ ليلاً[٤] وأن تأتيه ليلاً كأنّك أخذته فى بيته[٥] وإذا كانت القائلة وسط النّهار[٦] ونصفه[٧] وكانت القيلولة الاستراحة أو الرّاحة أو النّوم فى تلك الفترة على نحو ما تبيّن فإنّ البيات بمعنى إتيان العدوّ ليلاً إنّما يكون فى أعماق اللّيل وذلك على غرار القائلة وهى فى أعماق النّهار ، وذلك الوقت من اللّيل هو الآخر وقت نومٍ وغفلةٍ واستراحة . وحينما يدلّ البيات على إتيان العدوّ ليلاً وأخذه على غفلةٍ منه ، يكون فى مجىء لفظ البيات فى الآية الكريمة دليلٌ على أنّ الكافرين هم أعداء الله تعالى .

وإذا كانت عادة العرب قد جرت بتبييت العدوّ ليلاً أو الإغارة عليه صباحاً ولا يكادون يغيرون فى القائلة ووقت القيلولة بسبب شدّة الحرارة فى ذلك الوقت فإنّ عذاب الله تعالى كما يقع ليلاً يقع نهاراً ، فالله سبحانه وتعالى قادرٌ على كلّ شىء، ولا يعجزه جلّ وعلا شىءٌ فى الأرض ولا فى السّماء .

ومن البيّن أنّ الإشارة هنا إلى أعماق كلٍّ من اللّيل والنّهار تنبّه إلى أخذ الله تعالى الظّالمين بالعذاب على حين غفلةٍ من أهل القرى . والمعروف أنّ الغفلة ليلاً أشدّ من الغفلة نهاراً . وإنّ فى تقديم الآية الكريمة البيات تنبيهاً على هذه الحقيقة . وإنّ فى أخذ الله تعالى أهلَ القرى بالعذاب الشّديد على غرّة تنبيهًا إلى أنّ الظّالمين أساءوا فهم إمهال الله تعالى لهم فظنّوه إهمالاً ولم يفطنوا إلى استدراج الله تعالى لهم فى طغيانهم يعمهون .

وإنّ هذه المعاني تذكّرنا بالمعانى المشابهة فى هذه الآيات الكريمات الثّلاث من

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « بيت » ٦٤ .
(٢) انظر معجم مقاييس اللّغة لابن فارس : « بيت » ١ / ٣٢٥ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « بيت » ٩٥ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « بيت » ٩٥ .
(٥) معجم مقاييس اللّغة : « بيت » ١ / ٣٢٥ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢/٢٠١ .
(٧) البحر المحيط ٤ / ٢٦٤ .

هذه السّورة الكريمة . قال تعالى[1] : ﴿ أفأمن أهلُ القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون . أَوَ أَمِن أهلُ القرى أن يأتيهم بأسُنا ضُحًى وهم يلعبون . أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون ﴾ . إنّنا بصدد تدرّجٍ فى الأخذ بالعذاب من البغتة إلى الجهرة ، وكأنّ هذا التّدرّج ينبّه إلى تدرّج القوم فى الجراءة على الله تعالى. فبعد أن كان لدى القوم شيءٌ من الخوف من الله تعالى وشيءٌ من الحياء من عباد الله تعالى فيأتون الذنوب باللّيل استخفاءً صاروا يأتون المنكر فى وضح النّهار وعلى رءوس الأشهاد . ووراء تنبيه الآية الكريمة إلى أنّ غفلة القوم ليلاً أشدّ من غفلتهم نهاراً ، هى تنبّه إلى أنّ جراءة القوم نهارًا أشدّ من اللّيل . إنّ جراءة القوم مطّردة النّماء بتحوّلهم إلى ارتكاب الذّنوب نهارًا جهارًا إثر ارتكابهم لها ليلاً وسرًّا.

وتشير الآية الكريمة الأخرى إلى اعتراف الظّالمين دائماً وأبدًا حينما يأخذهم العذاب ويجيئهم بأس الله تعالى بأنهم كانوا ظالمين فعلاً مستحقّين لما حلّ بهم من هلاك . إنّ الظّالمين لا يستطيعون إلاّ أن يعترفوا بخطئهم وإلاّ أن يقولوا إنّهم كانوا مجرمين . قال تعالى : ﴿ وكم من قريةٍ أهلكناها فجاءها بأسنا بياتًا أو هم قائلون . فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلاّ أن قالوا إنّا كنّا ظالمين ﴾ .

ولمّا كان من مات كأنّما قامت قيامته ، وقد أهلك الله تعالى الظّالمين فى الأولى فبقى عذابهم فى الآخرة وإلى هذا المعنى أشارت .

الآيـــــة رقم (٦)

قال تعالى : ﴿ فلنسألنّ الّذين أُرْسِلَ إليهم ولنسألنّ المرسلين ﴾ .

يوم القيامة سوف يسأل الله تعالى الأمم عَلَى سبيل التّقريع والتّوبيخ والتّقرير عن موقفهم من رسل الله تعالى إليهم ، وسوف يسأل جلّ وعلا المرسلين على سبيل التّقرير عن موقف أممهم من دعوتهم لهم إلى صراط العزيز الحميد . جاء فى هذا

---

(١) سورة الأعراف ٩٧ ـ ٩٩ .

المعنى قوله عزّ من قائل فى سورة المائدة[١] : ﴿ يوم يجمع الله الرّسل فيقول ماذا أُجِبْتُمْ قالوا لا علم لنا إنّك أنت علاّم الغيوب ﴾ إنّ ربّ العزّة الّذى لا يخفى عليه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء يعلم موقف كلّ فردٍ فى كلّ أمّةٍ من دعوة رسوله جلّ وعلا إليها ، فى حياة ذلك الرّسول أو بعد موته عليه الصّلاة والسّلام . ويعلم جلّ وعلا أنّ كلَّ واحدٍ من المصطَفَيْنَ الأخيار قد بلّغ الرّسالة وأدّى الأمانة وكان لقومه النّاصح الأمين وضحّى فى سبيل الرّسالة بكلّ رخيصٍ وغال . وإلى علم الله تعالى المحيط أشارت .

الآيـــة رقم (٧)

قال تعالى : ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عليهم بعلمٍ وما كنّا غائبين ﴾ .

إنّ القصّ فى المحسوسات تتبّع الأثر ، يقال : قصصت أثره . والقَصَص الأثر . قال: فارتدّا على آثارهما قصصا . وقالت لأخته قصّيه[٢] والقَصَص الأخبار المتتبّعة[٣] وإنّ ربّ العزّة الّذى أحاط بكلّ شيءٍ علمًا وخُبْرًا حينما يسأل الّذين أُرْسل إليهم ويسأل المرسلين إنّما يسأل بقصد التقريع والتّوبيخ فى حقّ المكذّبين ، وبقصد التّقرير فى حقّ المرسلين . إنّه جلّ وعلا قد أحاط علماً بموقف الأمم من رسولها فى حياته وبعد مماته عليه الصّلاة والسّلام . وسواءٌ نسي الأفراد أو تناسوا فإنّ الله سبحانه وتعالى سوف يقصّ على المسئولين يوم القيامة بعلمٍ محيط . ولا تقف الآية الكريمة عند تقرير علم الله تعالى المحيط فقط : ﴿ فلنقصّنّ عليهم بعلم ﴾ إنّما تتجاوزه إلى تبيين أنّ الله سبحانه وتعالى ما كان غائباً عنهم ولا عن سواهم وقتاً من الأوقات ولا لحظةً من اللّحظات : ﴿ وما كنّا غائبين ﴾ وكأنّ الآية الكريمة تجمع إلى علم الله تعالى المحيط الشّهادة . وليس وراء الشّهادة فى الدّلالة على الإحاطة علماً وراءٌ ولا مدى .

---

(١) الآية ١٠٩ . (٢) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « قصص » ٤٠٤ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « قصص » ٤٠٤ .

والمعروف أنّ الظّالمين فى حال الإنكار بألسنتهم تشهد عليهم أعضاؤهم . جاء فى سورة يس[١] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ اليوم نختم على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون ﴾ وجاء فى سورة فصّلت[٢] قوله تعالى : ﴿ويوم يُحْشَر أعداء الله إلى النّار فهم يوزَعون . حتّى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الّذى أنطق كلّ شيءٍ وهو خلقكم أوّل مرّةٍ وإليه تُرْجَعون ﴾ .

وبعد الحساب العدل يكون القول الفصل وإلى ذلك أشارت .

الآيتان رقم (٨ ، ٩)

قال تعالى : ﴿ والوزن يومئذٍ الحقّ . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفّت موازينه فأولئك الّذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ .

إنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ وزن الأعمال يوم القيامة هو الحقّ وهو العدل وهو القسط[٣] : ﴿ اليوم تُجْزَى كلُّ نفسٍ بما كسبت . لا ظلم اليوم . إنّ الله سريع الحساب ﴾[٤] ﴿ إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة . وإن تك حسنةً يضاعِفْها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا ﴾[٥] : ﴿ ولا يظلم ربّك أحدًا ﴾[٦] كما تقرّر الآية الكريمة أنّ من ثقلت موازينه بالحسنات فأولئك هم المفلحون النّاجحون فى الامتحان الأكبر .

والآية الكريمة الأخرى تقرّر أنّ من خفّت موازينه وخلت من الحسنات وثقلت بالسّيّئات فأولئك هم الّذين خسروا أنفسهم قبل أن يخسر سواهم بسبب ظلمهم آيات الله تعالى بتكذيبها وظلمهم العبادة ذاتها بصرفها عمّن يستحقّها إلى ما لا يستحقّها أو من لا يستحقها . ونستطيع أن نفهم أنّ من معانى القول : ﴿ بما كانوا

---

(١) الآية ٦٥ . (٢) الآيات ١٩ ـ ٢١ .

(٣) انظر ـ مثلاً ـ تفسير الطبرى ٩١/٨ وتفسير القرطبىّ ٢٦٠١ والجلالين .

(٤) سورة غافر ١٧ . (٥) سورة النّساء ٤٠ .

(٦) سورة الكهف ٤٩ .

بآياتنا يظلمون ﴾ بما كانوا بآياتنا يكذّبون . وبما أنّ شذا الآيتين الكريمتين يفوح بالحقّ والعدل ونفى الظّلم ، وكان فى القول فى الآية الكريمة الأولى . ﴿ والوزن يومئذٍ الحقّ ﴾ نفىٌ ضمنىّ للظّلم ، كان فى نهاية الآية الكريمة الأخرى النّصّ على تورّط الّذين خسروا أنفسهم فى الظّلم . إنّ ظلم هؤلاء الّذين خفّت موازينهم من الحسنات يوم القيامة شمل العديد من أنواع الظّلم فاستحقّوا الجزاء العادل يوم القيامة. إنّهم ظلموا أنفسهم ، وظلموا رسل الله تعالى إليهم ، وظلموا آيات الله تعالى البيّنات ، وظلموا العبادة ذاتها بصرفها عن الله تعالى الّذى يستحقّها جلّ وعلا وحده دون سواه . وإنّ الآية الكريمة الأخرى لا يجىء فيها مثلاً القول : بما كانوا لآياتنا يظلمون ، كى ينصرف الظّلم إلى آيات الله تعالى وحدها . إنّ حرف الجرّ الباء الّذى جاء فى القول : ﴿ بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾ يضمّن جملة يظلمون الكثير من المعانى ومنها الظّلم المتعلّق بالآيات وهو تكذيبهم لها . ومن البيّن أنّ كفّار مكّة المكذّبين للقرآن الكريم وللرّسول العظيم من بين أولئك الظّالمين . إنّهم بادلوا الإحسان بالكفران كغيرهم من الظّالمين فى كلّ زمانٍ ومكان . وحول هذا المعنى تحدّثت .

الآيــة رقــم (١٠)

قال تعالى : ﴿ ولقد مكّنّاكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش . قليلاً ما تشكرون ﴾ .

تبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى قد مكّن لنا نحن بنى آدم فى الأرض وجعل لنا فيها معايش كى نشكر له جلّ وعلا نعمه وآلاءه . والمعايش جمع معيشة[1] والمعيشة الّتى تعيش بها من المطعم والمشرب وما تكون به الحياة وما يُعاش به أو فيه[2] .

وكي يدرك الإنسان بعض ما يجب عليه لله تعالى من شكرٍ على كلّ هذه النّعم والآلاء فى إمكانه أن يتمثّل المجهودات المضنية الّتى بذلتها البشريّة كى يتمكّن

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٩٣/٨ . (٢) القاموس المحيط « عيش » .

الإنسان من الهبوط على أقرب الكواكب إلى الأرض ، أعنى القمر ، والبقاء فوقه قليلاً من الوقت ، إضافةً إلى ما يحيط بهذه المغامرات الجريئة من مخاطر . وفى إمكان الإنسان كذلك أن يتفكّر فى الأربعة الأيّام الخاصّة بالأرض من بين الأيّام السّتّة الّتى خلق الله سبحانه وتعالى فيها السّماوات والأرض . لقد فهم ابن عبّاس رضى الله عنهما وجمهور العلماء أنّ ربّ العزّة خلق الأرض من غير دحوٍ فى يومين اثنين ، ثمّ خلق السّماوات فى يومين اثنين ، ثمّ هيّأ الأرض كى تسكنها الخلائق وفى مقدّمتها الإنسان فى يومين اثنين تمام ستّة أيّام . « عن ابن عبّاس ... وذلك أنّ الله خلق الأرض بأقواتها من غير أن يدحوها قبل السّماء ، ثمّ استوى إلى السّماء فسوّاهنّ سبع سماوات ، ثمّ دحا الأرض بعد ذلك . فذلك قوله : ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾[1] وإنّ هذا المعنى ينتهى إليه المتأمّل لآي الذّكر الحكيم حينما يجمع بين آيات سورة فصّلت وآيات سورة النّازعات . جاء فى سورة فصّلت[2] قوله تعالى : ﴿ قل أئنّكم لتكفرون بالّذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون أندادًا . ذلك ربّ العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها فى أربعة أيّامٍ سواءً للسّائلين . ثمّ استوى إلى السّماء وهى دُخَانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعًا أو كَرْهًا قالت أتينا طائعين . فقضاهنّ سبع سمواتٍ فى يومين وأوحى فى كلّ سماءٍ أمرها . وزيّنّا السّماء الدّنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ وجاء فى سورة النّازعات[3] قوله تعالى : ﴿ أأنتم أشدّ خلقاً أم السّماء بناها . رفع سَمْكَها فسوّاها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والأرض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبالَ أرساها . متاعًا لكم ولأنعامكم ﴾ .

وإنّ القول فى نهاية الآية الكريمة : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ يذكّرنا بالقول المشابه فى نهاية الآية الكريمة الثّالثة : ﴿ قليلاً ما تذكّرون ﴾ إنّ المعنى هنالك : تتذكّرون تذكّرًا قليلاً . وإنّ المعنى هنا : تشكرون شكرًا قليلاً .

---

(١) تفسير الطّبرىّ ٢٩/٣٠ والآية الكريمة هى الثّلاثون من سورة النّازعات .

(٢) الآيات ٩ - ١٢ .

(٣) الآيات ٢٧ - ٣٣ .

[٢]

« عداوة إبليس لآدم عليه السّلام وذرّيّته أزليّة »

الآيـــــات (١١ ـ ٢٥)

لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾
قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ
صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ
لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ۚ وَقَالَ
مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا
مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾
فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا
عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾
قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ
ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا
تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

حملتنا آيات القسم السّابق إلى الآخرة وتحدّثت عن الحساب والثّواب والعقاب ، ثمّ عادت بنا إلى الحياة الدّنيا فأشارت إلى تمكين الله تعالى لنا فى الأرض وجعل معيشتنا فيها . وقد واصلت آيات القسم الّذى نحن بصدده العودة إلى الوراء فاشارت إلى خلق الله تعالى للإنسان وجعله فى أحسن تقويم وأمر الله تعالى الملائكة بالسّجود له سجود تحيّة وتعظيم : ﴿ فسجدوا إلاّ إبليس لم يكن من السّاجدين ﴾ وتواصل الآيات الكريمات الحديث عمّا ترتّب على عصيان اللّعين لربّ العالمين ورفضه السّجود لآدم عليه السّلام بباعث الكبر والحسد لآدم عليه السّلام . إنّ ربّ العزّة حينما تفضّل وسأل اللّعين عن سبب العصيان كان العذر من جنس قبيح العمل . الكبر والحسد . وفى مقابل الكبر يؤمر اللّعين بأن يهبط من عليائه عملاً ويؤمر بالخروج ويوصف بأنّه من الصّاغرين . وهكذا يجتمع للّعين فى مقابل الكبر الصّغار عملاً وقولاً . ويطلب اللّعين من الله تعالى إنظاره إلى يوم بعث الخلائق ويقترن بذلك الخلود وذلك ما أراده اللّعين . ويُنْظِره الله تعالى إلى يوم الوقت المعلوم الّذى يموت فيه الخلائق بإذن الله تعالى ، أي حينما ينفخ إسرافيل فى الصّور النّفخة الأولى نفخة الصَّعَق أي الموت . ويتوعّد اللّعين آدم عليه السّلام وزوجه حوّاء عليها السّلام وذرّيّتهما أن يعمل جاهداً على تضليلهم وإغوائهم بالقعود لهم كلّ مرصد بصدّهم عن الصّراط المستقيم وإخراجهم منه ، وبالمجيء إليهم من كلّ المنافذ كيلا يكونوا شاكرين لله تعالى باستثناء عباد الله تعالى المخلَصين . وإنّ الله سبحانه وتعالى العليم القدير لا يؤاخذ اللّعين بما سبق علم الله تعالى إليه ولكن يؤاخذ اللّعين بعمله فيؤمر هذه المرّة بالخروج معيباً مطروداً ويهدَّد بملء جهنّم منه ومن ذرّيّته ومن الّذين يتّبعونه من بنى آدم . وينادى الله تعالى آدم عليه السلام احتفاءً به عليه السّلام ويأمره بأن يسكن هو وزوجه الجنّة وأن يأكلا من حيث شاءا، وفى تحقّق الأكل دون عناء تحقّق لكلّ متعلّقات النّعيم ، ويُنْهَى هو وزوجه عن مجرّد الاقتراب من شجرةٍ بعينها وإلاّ كانا من الظّالمين . ويوسوس اللّعين لآدم

وحوّاء عليهما السّلام ويهمس لهما همساً خفيًّا ويكرّر الهمس والوعود الكاذبة والأماني المعسولة بأن يكونا ملكين ومن الخالدين إن هما أكلا من الشّجرة . والحقيقة أنّه يريد أن يبدي لهما ما ستره الله تعالى من عوراتهما . وإنّ هذا الهدف الحقيقى للّعين هو السّبب وراء دمار الحضارات وإلقاء الأمم بأيديها إلى التّهلكة . وكى يسهّل اللّعين لهما مخالفة نهي الله تعالى ، وكى يزيّن لهما المعصية يقسم لهما بالله العظيم إنّه لهما لمن النّاصحين المخلصين . وهكذا دلاّهما الشّيطان بغروره ونزل بهما من عليائهما وهبط بهما إلى معصية الله تعالى بالأكل من الشّجرة : ﴿ فلمّا ذاقا الشّجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنّة ﴾ وكما فهمنا من كشف الشّيطان الرّجيم العورات السّبب المهم فى انهيار الحضارات ، فهمنا من أخذ آدم وحوّاء عليهما السّلام الأسباب فى ستر عوراتهما بلزق بعض ورق الجنّة إلى بعض ووضع بعضه على بعض ، السّبب المهمّ فى بناء الحضارات وبقائها وهو الطّهر والعفاف وتقديم الحقّ والخير على الجَمال . وينادیهما ربّهما جلّ وعلا ويسألهما : ﴿ ألم أنهكما عن تلكما الشّجرة وأقل لكما إنّ الشّيطان لكما عدوٌّ مبين ﴾ ويلقّنهما الله تعالى الكلمات الّتى يدعوانه جلّ وعلا بها : ﴿ قالا ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين ﴾ ويأمرهما الله تعالى بالهبوط إلى الأرض ومعهما اللّعين ، ويبيّن الله تعالى أنّ لهما ولذرّيّتهما فى الأرض مستقرًّا ومتاعًا إلى حينٍ وأجلٍ مسمّى : ﴿ قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تُخرَجون ﴾ .

الآيـــة رقم (١١)

قال تعالى : ﴿ ولقد خلقناكم ثمّ صوّرناكم ثمّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس لم يكن من السّاجدين ﴾ .

إنّ حرف العطف : ﴿ ثمّ ﴾ الدّالّ على التّرتيب مع التّراخى فى القول : ﴿ ثمّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ يفيد أنّ المقصود بالقول : ﴿ ولقد خلقناكم ثمّ صوّرناكم ﴾ آدم عليه السّلام . إنّ آدم عليه السّلام لمّا كان أوّل من خلق الله تعالى

من البشر ومنه خلق جلّ وعلا زوجه حوّاء عليها السّلام ، ومنهما بثّ الله تعالى رجالاً كثيراً ونساءً صحّ أن يعبّر عن آدم عليه السّلام بالقول : ﴿ ولقد خلقناكم ثمّ صوّرناكم ﴾ إنّ ربّ العزّة خلق آدم عليه السّلام من صلصالٍ من حمأٍ مسنون ثمّ نفخ جلّ وعلا فيه من روحه فكان عليه السّلام بشرًا سويًّا فى أحسن تقويم وأجمل صورة . وإنّ كلّ البشر من ذرّيّة آدم وحوّاء عليهما السّلام ، وإنّ الصّورة الحسنة الّتى أوجد الله تعالى عليها آدم وحوّاء عليهما السّلام قد جعلها الله تعالى لذرّيّتهما. جاء بشأن عمليّة الخلق قوله عزّ من قائل[1] : ﴿ يا أيّها النّاس اتّقوا ربّكم الّذى خلقكم من نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً . واتّقوا الله الّذى تساءلون به والأرحام . إنّ الله كان عليكم رقيباً ﴾ وجاء بشأن عمليّة التّصوير قوله تعالى[2] : ﴿ الله الّذى جعل لكم الأرض قراراً والسّماء بناءً وصوّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطّيّبات . ذلكم الله ربّكم فتبارك الله ربّ العالمين ﴾ وجاء بشأن عمليّة الخلق قوله وتعالى[3] : ﴿ والتّين والزّيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين . لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ وإلى تفضيل الله تعالى جنس الإنسان على كثيرٍ ممّن خلق جلّ وعلا جاء قوله عزّ من قائل[4] : ﴿ ولقد كرّمنا بنى آدم وحملناهم فى البرّ والبحر ورزقناهم من الطّيّبات وفضّلناهم على كثيرٍ ممّن خلقنا تفضيلا ﴾ .

ومن البيّن أنّ هذا القول : ﴿ ولقد خلقناكم ثمّ صوّرناكم ﴾ الّذى يشير إلى آدم عليه السّلام يخاطب الله تعالى به النّاس أجمعين وفيهم كفّار مكّة . إنّ على النّاس جميعًا أن يقدروا هذه النّعمة حقّ قدرها وأن يعرفوا الغاية الّتى خلقهم الله تعالى من أجلها وهى إفراده عزّ وجلّ بالعبادة وأن يبادلوا الإحسان بالإحسان .

والآية الكريمة تشير إلى تكريم الله تعالى جنس الإنسان فى شخص آدم عليه السّلام حينما أمر الله تعالى الملائكة بأن يسجدوا لآدم عليه السّلام سجود تحيّةٍ وتعظيم : ﴿ فسجدوا إلاّ إبليس لم يكن من السّاجدين ﴾.

---

(١) سورة النّساء ١ .
(٢) سورة غافر ٦٤ .
(٣) سورة التّين ١ ـ ٤ .
(٤) سورة الإسراء ٧٠ .

ومن البيّن أنّ اللّعين إنّما عصى الله تعالى بباعث التّعالى والكبر من ناحية وبباعث الحسد لآدم عليه السّلام من ناحية أخرى والآية الكريمة التّالية تتحدّث فى هذا المعنى فإلى .

الآيـــة رقم (١٢)

قال تعالى : ﴿ قال ما منعك ألاّ تسجد إذ أمرتك . قال أنا خيرٌ منه خلقتنى من نارٍ وخلقته من طين ﴾ .

إنّ أوّل ما يلفت النّظر مجيء لا فى القول : ﴿ قال ما منعك ألاّ تسجد ﴾ وكأنّ أصل المعنى : ما منعك أن تسجد إذ أمرتك . وقد اختلفت الآراء بشأن لا هنا . ومع أنّ النّحويّين يذهبون فى مجموعهم إلى أنّ ﴿ لا ﴾ جيء بها هنا لتأكيد الجحد فى الآية الكريمة السّابقة : ﴿ لم يكن من السّاجدين ﴾ إلاّ أنّ القول بأنّ لا زائدة قولٌ لا نحبّه واصطلاحٌ نحن فى غنىً عنه ، فليس فى القرآن شيءٌ يصحّ أن يقال عنه إنّه زائد ، وإن كان القول : « زائد » صناعةً نحويّة[1] ونحن نرى رأي الطّبريّ بأنّ فى الكلام حذفًا خاصّةً وأنّ هذا الحذف سوف يجيء لاحقًا فى الآية الكريمة السّادسة والخمسين فى القول : ﴿ إنّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين ﴾ كما سيتبيّن بإذن الله تعالى مستقبلاً . يقول ابن جرير رحمه الله تعالى رحمةً واسعة[2] : « قال أبو جعفر : والصّواب عندى من القول فى ذلك أنْ يقال : إنّ فى الكلام محذوفًا قد كفى دليلُ الظّاهر منه ، وهو أنّ معناه : ما منعك من السّجود ، فأحوجك ألاّ تسجد . فترك ذكر « أحوجك » استغناءً بمعرفة السّامعين قوله : ﴿ إلاّ إبليس لم يكن من السّاجدين ﴾ أنّ ذلك معنى الكلام ، مِنْ ذِكره[3] ثمّ عمل قوله : ﴿ ما منعك ﴾ فى أنْ ، ما كان عاملاً فيه قبل « أحوجك » لو ظهر ، إذ كان قد ناب

---

(١) أنظر مثلاً تفسير الطّبرىّ ٩٦/٨ ، ٩٧ .

(٢) تفسير الطبرىّ ٩٧/٨ وتحقيق الأستاذ محمود محمّد شاكر ٣٢٥/١٢ .

(٣) الأستاذ شاكر ٣٢٦ : « السّياق : استغناءً بمعرفة السّامعين .... مِنْ ذِكره » .

عنه » وقد علّق ابن كثير[1] على رأى ابن جرير المختار بالقول : « واختار أنّ منعك مضمّنٌ معنى فعلٍ آخر تقديره : ما أحوجك وألزمك واضطرّك أن لا تسجد إذ أمرتك ونحو هذا . وهذا القول قويٌّ حسنٌ والله أعلم » وجاء فى تفسير ابن عطيّة[2] القول : « وجملة هذا أن يقدّر فى الكلام فعلٌ يحسن حمل النّفي عليه كأنّه قال : ما أحوجك أو حملك أو اضطرّك ؟ »

وكان جواب اللّعين قبيحاً كفعله : ﴿ قال أنا خيرٌ منه خلقتنى من نارٍ وخلقته من طين ﴾ إنّ اللّعين يرى أنّه أفضل من آدم عليه السّلام ويعلن ذلك صراحةً فى جوابه على سؤال ربّ العزّة المنكر على اللّعين امتناعه عن السّجود . إنّه يعلن ذلك رغم علمه بتفضيل الله تعالى آدم عليه السّلام بدليل أمر الملائكة بالسّجود له عليه السّلام. ويبيّن اللّعين السّبب الّذى من أجله هو خيرٌ من آدم عليه السّلام . إنّ إبليس خلقه الله تعالى من نار ، وإن آدم عليه السّلام خلقه الله تعالى من طينٍ لازب ؛ وفي رأى اللّعين أنّ الطّين لا يسمو سموّ النّار ! إنّ اللّعين قارن بين النّار والطّين ونسي أو تناسى أنّ الله تعالى نفخ فى آدم عليه السّلام من روحه جلّ وعلا .

وهكذا يجمع اللّعين بين العصيان والكِبْر والحَسَد . وقد عاقبه الله تعالى على الفور فإلى .

الآيـــة رقم (١٣)

قال تعالى : ﴿ قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبّر فيها فاخرج إنّك من الصّاغرين ﴾ .

إنّ الكبر الّذى اتّسم به اللّعين حمله على عصيان الله تعالى من ناحية ، وعلى حسد عبد الله تعالى آدم عليه السّلام من ناحيةٍ أخرى . وها هوذا اللّعين ينال فى الآية الكريمة عقابه على أكبر الذّنبين ، معصية الله تعالى . وفى الآية الكريمة يأمر ربّ العزّة اللّعين بأن يهبط منها . والهبوط الانحدار على سبيل القهر كهبوط الحجر.

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٠٣ .

(٢) ٥ / ٤٤١ .

وإذا استُعْمِل فى القرآن الكريم فى الإنسان فعلى سبيل الاستخفاف ، بخلاف الإنزال ، فإنّ الإنزال ذَكَره الله تعالى فى الأشياء الّتى نبّه على شرفها كإنزال الملائكة والقرآن والمطر وغير ذلك . والهَبْط ذُكِر حيث نبّه على الغضّ نحو : وقلنا اهبطوا بعضكم لبعضٍ عدوّ . فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبّر فيها . اهبطوا مصرًا فإنّ لكم ما سألتم . وليس فى قوله : فإنّ لكم ما سألتم ، تعظيمٌ وتشريف . ألا ترى أنّه تعالى قال : وضُرِبَتْ عليهم الذّلّة والمسكنة وباءوا بغضبٍ من الله . وقال جلّ ذكره . قلنا اهبطوا منها جميعًا[1] .

ويصحّ أن يعود الضمير فى القول : ﴿ فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبّر فيها﴾ إلى الجنّة أو إلى السّماء[2] ويظهر أنّ تحديد المكان الّذى أغوى منه إبليس اللّعين آدم وحوّاء عليهما السّلام له دوره فى معرفة ما يعود إليه الضّمير فى الآيات الكريمات . إنّ من ذهب إلى أنّ إغواء اللّعين كان من خارج الجنّة يرى أنّ الضّمير هنا يعود إلى الجنّة الّتى هبط منها اللّعين وخرج . وإنّ من ذهب إلى أنّ الإغواء كان داخل الجنّة يرى أنّ الضّمير يعود إلى السّماء يقول على سبيل المثال ابن عطيّة[3] :

« فيظهر من هذا أنّه أُهْبط أوّلاً وأخرج من الجنّة وصار فى السّماء لأنّ الأخبار تظاهرت أنّه أغوى آدم وحوّاء من خارج الجنّة، ثمّ أمر آخرًا بالهبوط من السّماء ».

وإنّ القول : ﴿ فما يكون لك أن تتكبّر فيها ﴾ بمثابة التّعليل للأمر بالهبوط . وفى مقابل كبر اللّعين أهانه الله تعالى فأُمر بعد الهبوط بالخروج المطلق ذليلاً حقيراً مهينا : ﴿ فاخرج إنّك من الصّاغرين ﴾ من الّذين قد نالهم من الله الصّغار والذّلّ والمهانة[4] .

ويطلب اللّعين الإمهال إلى النّفخة الثّانية فيمهل إلى النّفخة الأولى فقط ، وفى هذا المعنى تحدّثت .

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « هبط » ٥٣٦ .

(٢) انظر مثلاً تفسير الطبرىّ ٩٨/٨ وتفسير ابن كثير ٢٠٤/٢ والكشّاف ٥٤١/١ والجلالين والبحر المحيط ٢٧٤/٤ وتفسير القرطبى ٢٦٠٩ .

(٣) تفسير ابن عطيّة ٤٤٢/٥ .

(٤) تفسير الطّبرىّ ٩٨/٨ .

الآيتـــان رقم (١٤ و١٥)

قال تعالى : ﴿ قال أنظرنى إلى يوم يُبْعَثون . قال إنّك من المنظرين ﴾ .

هاتان الآيتان الكريمتان يصحّ أن ينظر إليهما فى ضوء مثل هذه الآيات الكريمات من سورة الحِجْر[١] قال تعالى : ﴿ قال ربّ فأنظرنى إلى يوم يُبْعثون . قال فإنّك من المُنْظَرين . إلى يوم الوقت المعلوم ﴾ . إنّ اللّعين طلب من ربّ العزّة أن يمهله إلى يوم يبعث الله تعالى الخلائق إثر صيحة إسرافيل الثّانية الّتى تحيا ، بإذن الله تعالى ، الخلائق بسببها ، فأمهله الله تعالى إلى يوم يموت الخلائق بإذن الله تعالى إلاّ من شاء الله تعالى من الملائكة والحور والولدان وذلك إثر صيحة إسرافيل الأولى بإذن الله تعالى .

إنّ اللّعين أراد بالإمهال إلى يوم البعث الخلود ، وإنّ الله تعالى أمهله إلى يوم الوقت المعلوم حينما يموت الخلائق بإذن الله تعالى بسبب صيحة إسرافيل الأولى . وإلى هاتين الصّيحتين أشار مثل قوله تعالى فى سورة يس[٢] : ﴿ ما يَنْظُرون إلاّ صيحةً واحدةً تأخذهم وهم يَخِصِّمون . فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يَرْجعون ونُفِخَ فى الصّور فإذا هم من الأجداث[٣] إلى ربّهم يَنْسِلون . قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا . هذا ما وَعَدَ الرّحمنُ وصَدَق المرسلون ﴾ كما أشار إلى الصّيحتين قوله تعالى فى سورة الزّمر[٤] : ﴿ ونُفِخَ فى الصّور فَصَعِقَ من فى السّماوات ومن فى الأرض إلاّ من شاء الله ثمّ نُفِخَ فيه أُخْرَى فإذا هم قيامٌ يَنْظِرُون ﴾ .

---

(١) الآيات ٣٦ ـ ٣٨ والآيات ٧٩ ـ ٨١ من سورة ص .

(٢) الآيات ٤٩ ـ ٥٢ .

(٣) الأجداث : القبور .

(٤) الآية ٦٨ .

إنّ الله سبحانه وتعالى الّذى سبق علمه إلى ما سوف يعمل اللّعين ، لا يؤاخذ اللّعين بسابق علمه جلّ وعلا ، إنّما يؤخّره إلى يوم الوقت المعلوم ، كى يؤاخذ اللّعين بجرائره الّتى يعلن عنها دون خوفٍ ولا حياء . وإلى ذلك الإعلان أشارت .

الآيتـــان رقم (١٦ و١٧)

قال تعالى : ﴿ قال فبما أغويتنى لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم . ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم ومِنْ خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ .

إنّ القول من ذى قبل خطابًا لربّ العزّة والجلال على لسان اللّعين فى الآية الكريمة الثّانية عشرة : ﴿ قال أنا خيرٌ منه خلقتنى من نارٍ وخلقته من طين ﴾ نفهم منه ظاهرتين متناقضتين . الظّاهرة الأولى اعتراف اللّعين أنّه وهو المخلوق الذّليل الحقير يخاطب مولاه جلّ وعلا الخالق البارئ المصوّر قيّوم السّماوات والأرض . والظّاهرة الأخرى تورّط اللّعين فى عصيان الخالق . وحينما يكثر فى أيّامٍ النّاس هذه الكثير من الملحدين الّذين ينكرون وجود الله تعالى : ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا ﴾[1] هل فى إمكاننا القول : إنّ هؤلاء الملحدين أحطّ من إبليس اللّعين ما داموا منكرين وجود الله تعالى ؟ وما الّذى يمنعنا من هذا القول ؟ لا شىء .

وإنّ الآية الكريمة الأولى الّتى نحن بصددها فيها تجسيدٌ لهاتين الظّاهرتين . والعجيب أنّ هاتين الظّاهرتين تتجسّدان بقوّة فى القول على لسان اللّعين : ﴿ فبما أغويتنى ﴾ إنّنا من ناحيةٍ بصدد قَسَمٍ متعلّقٍ بالذّات العليّة على نحوٍ من الأنحاء ، ومن ناحيةٍ أخرى بصدد قسمٍ على لسان اللّعين بإغواء الله تعالى له ! وأصل الإغواء فى كلام العرب تزيين الرّجل للرّجل الشّىء حتّى يحسّنه عنده غارًّا له[2] إنّ اللّعين الّذى يرى سموّه على آدم عليه السّلام والّذى نسي أنّ الله تعالى نفخ فى آدم عليه السّلام من روحه يرى ـ وهو الفاضل حسب زعمه ـ فى أمر الله تعالى له أن يسجد لآدم عليه السّلام ـ وهو المفضول حسب زعمه ـ إغواءً للّعين وحملاً له على العصيان .

---

(١) سورة الكهف ٥ .

(٢) تفسير الطّبرىّ ٨/٩٩ .

وهكذا يجمع اللّعين فى القول على لسانه : ﴿ فبما أغويتنى ﴾ بين الظّاهرتين المتناقضتين معاً . العبوديّة وعصيان المعبود ! الباء باء القسم . ما حرف مصدريّ . أغويت فعل ماضٍ وفاعله . والنّون للوقاية والياء مفعولٌ به . والمصدر المؤوّل : ما أغويتنى ، فى محلّ جرّ بالباء متعلّق ب : أقسم ، أي أقسم بإغوائك لأقعدنّ[1] .

ونسي اللّعين أنّ لله تعالى وحده لا شريك له له الخلق والأمر ، وأنّ واجب المخلوق أن يطيع الخالق طاعةً مطلقة ، وأنّ الله سبحانه وتعالى لا يُسْأَل عمّا يفعل وهم يُسْألون .

وبشأن جملة : ﴿ لأقعدنّ لهم ﴾ يلفت نظرنا مبناها ومعناها . أمّا المبنى فبسبب مجيء لام القسم . فاللّعين يقسم أنّه سوف يقعد لآدم عليه السّلام وذرّيّته صراط الله تعالى المستقيم يصدّهم عنه ، ويخرجهم منه . وأمّا المعنى فبسبب المعنى الفريد لجملة قعد فى لغة الضّاد . وفى مناسباتٍ سابقةٍ متعدّدة فى التّأمّلات حاولنا أن نبيّن معاني جملة قعد ومراميها ، ومن تلك المناسبات حديث الآية الكريمة الثّامنة والسّتّين بعد المائة من سورة آل عمران عن المنافقين الّذين قعدوا عن الجهاد مع المصطفى ﷺ فى غزوة أحد . قال تعالى : ﴿ الّذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا . قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين ﴾ وموجز تلك المعانى والمرامى أنّ جملة قعد تفيد معنى جملة جلس صنوها ولكنّ الاتّجاهين فى الجملتين مختلفان . إنّ جملة قعد تفيد الاتّجاه من أعلى إلى أسفل فيقال مثلاً : كان قائماً فقعد . وإنّ جملة جلس تفيد الاتّجاه من أسفل إلى أعلى فيقال مثلاً : كان مضطجعًا فجلس . ومن البيّن التّوافق بين انهزام المنافقين قولاً وفعلاً . ومن معانى القعود تربّص الدّوائر بالعدوّ .

وإنّ الجملة الّتى جرت على لسان اللّعين تذكّرنا بجملة : ﴿ واقعدوا لهم كلّ مرصد ﴾ فى الآية الكريمة الخامسة من سورة التّوبة أمرًا من ربّ العزّة للمؤمنين أن يقعدوا للمشركين كلّ مرصد . قال تعالى : ﴿ فإذا انسلخ الشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلّ مرصد . فإن

---

(١) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٣٠٣/٤ .

تابوا وأقاموا الصّلاة وآتوا الزّكاة فخلّوا سبيلهم . إنّ الله غفورٌ رحيم ﴾ ومعنى : ﴿ واقعدوا لهم كلّ مرصد ﴾ واقعدوا لهم كلّ طريقٍ ومرقب . وهو مَفْعَل من قول القائل : رصدت فلاناً أرصده رصداً بمعنى رقبته[1] .

إنّ اللّعين يقف من آدم عليه السّلام ومن ذرّيّته عليه السّلام من المؤمنين موقف العدوّ اللّدود الّذى يتربّص بخصمه الدّوائر ، ويتعقّبه فى كلّ موضع ، ويقعد له فى كلّ مرصد . إنّه يحاول بكلّ الوسائل أن يستدرج المؤمن إلى شباكه ، وأن يزجّ به فى كلّ هاوية ، وأن يختبئ له وراء كلّ أكمة ، وأن ينقضّ عليه فى اللّحظة الحاسمة، وأن يفتك به فتكاً ذريعاً . وليس من ذنبٍ للمؤمن سوى أنّه حريصٌ على أن يسير فى صراط الله تعالى الحميد باعتناق دين الإسلام الّذى رضيه الله تعالى لعباده والّذى يحاول اللّعين أن يصرف عباد الله تعالى عنه ويخرجهم منه[2] .

ومن البيّن أنّ الّذى يقعد لخصمه كلّ مرصد يظلّ فى موضعه وينتظر من عدوّه أن يجيء عنده ويمرّ به . وإنّ هذا المعنى هو الّذى يُفْهَم من هذه الآية الكريمة : ﴿ قال فبما أغويتنى لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ﴾ فهل اكتفى اللّعين بالقعود لآدم عليه السّلام وذرّيّته كلّ مرصد ظلماً وعدواناً ؟ لم يكتف اللّعين بالقعود بل ضمّ إلى ذلك التّوجّه إلى الخصم وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة التّالية . قال تعالى : ﴿ ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾.

إنّ حرف العطف : ﴿ ثمّ ﴾ الّذى يدلّ على التّرتيب مع التّراخى يفيد أنّ اللّعين بعد أن يستنفد وسيلته الأولى من القعود لخصمه كلّ مرصد حتّى يمرّ به فينقضّ فيجهز عليه أو يرمي به فى هاوية ، هو حينما لا تؤدّى هذه الوسيلة الأولى غرضها يلجأ إلى الوسيلة الأخرى بأن يتّجه هو إلى خصمه وينازله فى كلّ الميادين صارفاً له عن كلّ خير ، وصارفاً كلّ خير عنه . ومن المعلوم أنّه حينما يكون صرفٌ للخير

---

(١) تفسير الطّبرىّ ١٠ / ٥٦ .

(٢) الكشّاف ١/٥٤٢ : « صراطك المستقيم ... طريق الإسلام ... وانتصابه على الظّرف » .

من الخصم يكون جلبٌ للشرّ منه . وقد عبّرت الآية الكريمة عن ميادين المواجهة الأربعة الرّئيسيّة مع اللّعين .

لقد جرت العادة أنّه حينما يكون ثمّة شعورٌ من الخصم بالقوّة وبالقدرة على خصمه أن يعمل على مواجهته وجهاً لوجه . إنّ هذه المرحلة الأولى من المواجهة جاء عنها التّعبير فى الآية الكريمة بالقول : ﴿ ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم ﴾ .

وقد جرت العادة كذلك أنّ الخصم حينما يشعر بأنّ خصمه ذو قوّةٍ ظاهرة وربما كانت له قوّةٌ أخرى خفيّة ، خاصّةً إذا كانت المواجهة السّافرة فى المرّة الأولى لم تؤت أكلها أن يلجأ إلى الحيلة فالحرب خدعة كما قال الصّادق المصدوق ﷺ . وقد جاء فى الآية الكريمة التّعبير عن هذه المرحلة بالقول : ﴿ ثمّ لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ . وانظر إلى حرف الجرّ ﴿ من ﴾ الّذى يجىء فى هذه الجزئيّة الكريمة بشقّيها . جريًا على عادة العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم .

وهكذا يجمع اللّعين فى حربه لبنى آدم بين الحربين ، السّافرة المعلنة ، والمقنّعة الخفيّة . وبما أنّ حرب اللّعين لبنى آدم مصيريّة لذا هو يواصل الهجوم ويستمرّ فى تكرار المحاولات وبخاصّة فى حقّ عباد الله تعالى المخلصين الّذين جاء الاستثناء لهم على لسان اللّعين فى قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿ قال ربّ بما أغويتنى لأزيّننّ لهم فى الأرض ولأغوينّهم أجمعين . إلاّ عبادك منهم المخلَصين ﴾ .

وتكون الخطوة الثّالثة من اللّعين أن يأتى بنى آدم من ذات اليمين ، ثمّ أن يأتيهم من ذات اليسار . قال تعالى : ﴿ ثمّ لآتينّهم مِنْ بين أيديهم ومِنْ خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ وانظر إلى حرف الجرّ ﴿ عن ﴾ الّذى يجىء فى هذه الجزئيّة الكريمة بشقّيها ، جريًا على عادة العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم ، هذا إلى لطيف التّنويع فى التّعبير ، وجميل التّغيير فى الأسلوب .

---

(١) سورة الحجر ٣٩ ، ٤٠ .

لقد جرت العادة بشأن صاحب الحاجة فى أيّ مكان أن يتّجه إلى الباب فى الأمام ، فإن وجده موصداً واصطدم به أن يرتدّ إلى الوراء وأن يحاول الولوج فى الباب الآخر المقابل . إنّ هذا ما عبّر عنه اللّعين فى القول على لسانه : ﴿ ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم ﴾ .

كما جرت العادة أنّه فى حال الاصطدام بهذا الباب الآخر المقابل والارتداد عنه أن تكون ثمّة محاولةٌ ثالثة بطرق الباب الثّالث فمحاولة الولوج منه وربّما رابعة وخامسة وهكذا .

وإنّ الاتّجاه إلى الباب الّذى فى الأمام إذا كان قد أدّى إلى الاتّجاه إلى الباب الّذى فى الوراء ، فالأمام هو الأقرب ، والأمام يؤدّى بالتّضادّ إلى الوراء ، فإنّ الشّىء ذاته يقال عن الباب الّذى يقع ذات اليمين ، وعن الباب الّذى يقع ذات اليسار . إنّ اليمين هو الأقرب ، وإنّ اليمين يؤدّى بالتّضاد إلى اليسار : ﴿ ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾ .

وليست هذه الأبواب المذكورة الّتى يأتى منها الشّيطان الرّجيم سوى الأبواب الرّئيسيّة فإنّ له ـ والعياذ بالله تعالى منه ـ ما لا يُحْصَى من الأبواب والمنافذ . وإنّ الجزئيّة الكريمة الأخيرة فى الآية : ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ تومئ إلى تلك الأبواب والمنافذ الكثيرة . فالقليل من عباد الله تعالى هو الشّكور لمولاه جلّ وعلا ، والكثير هو الكفور بتضليلٍ من الشّيطان الرّجيم . ومن الآيات الكريمات الّتى تشير إلى المنافذ الكُثْر للشّيطان الرّجيم هذه الآيات الكريمات من سورة الإسراء[1] قال تعالى[2] : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينًا . قال أرأيتك هذا الّذى كرّمت علىّ لئن أخّرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذرّيّته إلاّ قليلاً . قال اذهب فمن تبعك منهم فإنّ جهنّم جزاؤكم جزاءً موفورًا . واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخَيْلِك ورَجِلِك

---

(١) درسنا الآيات الكريمات فى كتاب : « تأملات فى سورة الإسراء » ٢١٢ ـ ٢٢٤ تحت عنوان : تحذير من إبليس اللّعين . الطبعة الأولى . القاهرة ١٩٧٨ م .

(٢) سورة الإسراء ٦١ ـ ٦٥ .

وشاركهم فى الأموال والأولاد وعِدْهم . وما يعدهم الشّيطان إلاّ غرورًا . إنّ عبادى ليس لك عليهم سلطان . وكفى بربّك وكيلاً ﴾ .

وإذا كان اللّعين قد أُمِرَ من ذى قبل بأن يهبط من المكان العالى الّذى كان فيه وأن يخرج منه بسبب كفره وعصيانه فإنّه يؤمر الآن بأن يخرج بسبب بغيه وعدوانه وذلك فى .

الآيـــة رقم (١٨)

قال تعالى : ﴿ قال اخرج منها مذءومًا مدحورًا . لمن تبعك منهم لأملأنّ جهنّم منكم أجمعين ﴾ .

إنّ ربّ العزّة يأمر اللّعين بأن يخرج من الجنّة[١] مذءومًا معيبًا[٢] مدحورًا مطرودًا[٣] والذّأم العيب ، يقال منه : ذَأَمه يذأَمُه ذأْمًا فهو مذءوم . ويتركون الهمز فيقولون : ذمته أذيمه ذيماً وذاماً . والذّأم والذّيم أبلغ فى العيب من الذّمّ[٤] وأمّا المدحور فهو المقصيّ . يقال : دحره يدْحَرُه دَحْرًا ودُحور إذا أقصاه وأخرجه . ومنه قولهم : اِدْحَرْ عنك الشّيطان[٥] .

وإذا كان مِنْ قَبْلُ أمرٌ للشّيطان الرّجيم بالهبوط فالخروج ، فإنّا الآن أمام أمرٍ من ربّ العزّة للّعين بالخروج حاملاً أسوأ أنواع العيب ممقوتًا[٦] مطرودًا[٧] مبعدًا عن الرّحمة[٨] .

ويشترك مع اللّعين فى عذاب الله تعالى الّذين يعصون الله تعالى ويطيعون اللّعين ويتّبعونه . وإنّ الشّقّ الآخر من الآية الكريمة يتحدّث فى هذا المعنى : ﴿ لمن تبعك منهم لأملأنّ جهنّم منكم أجمعين ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٠٣ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٨/١٠٣ وتفسير ابن كثير ٢/٢٠٥.
(٣) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٠٣ وتفسير ابن كثير ٢ / ٢٠٥ .
(٤) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٠٣ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٠٣ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٠٣ والجلالين .
(٧) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٠٣ وتفسير ابن كثير ٢/٢٠٥.
(٨) الجلالين .

اللاّم موطّئة للقسم . مَنْ اسم شرط جازم مبنيّ فى محلّ رفع مبتدأ . تبع فعل ماض . والكاف ضميرٌ مفعولٌ به . والفاعل ضمير مستتر تقديره هو يعود على مَنْ. مِنْهم جار ومجرور متعلّق بحال من الضّمير المستتر فى تبعك . اللاّم لام القسم . أملأنّ : مضارع مبنىّ على الفتح فى محلّ رفع . والنّون نون التّوكيد . والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا . جهنّم مفعول به منصوب . منكم جار ومجرور متعلّق بـ أملأنّ . أجمعين : توكيد للضّمير المتّصل فى منكم تبعه فى الجرّ ، وعلامة الجرّ الياء[1] .

ومن البيّن أنّ الأسلوب صارم ، وأنّ المسئوليّة كبرى ، وأنّ ربّ العزّة ليملأنّ جهنّم من إبليس وقبيله ومن الّذين اتّبعوهم من بنى آدم وأطاعوا اللّعين وعصوا ربّ العالمين .

ونستطيع أن نفهم أنّ العذاب حينما يكون بسبب المعصية أليما فإنّ الثّواب بسبب الطّاعة يكون عظيما .

ونستطيع أن نفهم كذلك أنّ آدم عليه السّلام كان على علمٍ كامل بموقف اللّعين منه ومن زوجه ، بل إنّ ربّ العزّة حذّره من اللّعين على نحو ما يتبيّن ـ مثلاً ـ من هذه الآيات الكريمات من سورة طه[2] قال تعالى : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ إبليس أبى . فقلنا يا آدم إنّ هذا عدوٌّ لك ولزوجك فلا يخرجنّكما من الجنّة فتشقى . إنّ لك ألاّ تجوع فيها ولا تَعْرَى . وأنّك لا تظمأ فيها ولا تضحى﴾ ومن البيّن أنّ فى آيات سورة طه زيادة تفصيل تجاوزته آيات سورة الأعراف . وإنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث عن آدم عليه السّلام وزوجه فى الجنّة فإلى .

---

(١) انظر الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٤ / ٣٠٤ و٣٠٥ .

(٢) الآيات ١١٦ ـ ١١٩ .

الآيـــة رقم (١٩)

قال تعالى : ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشّجرة فتكونا من الظّالمين ﴾ .

ما ألطف نداء ربّ العزّة آدم عليه السّلام باسمه دليل الرّضا عنه والإقبال عليه : ﴿ ويا آدم ﴾ وما ألطف اجتماع سكينة الزّوجة حواء عليها السّلام وسكينة الجنّة في حقّ آدم عليه السّلام وقد قال الحقّ جلّ وعلا : ﴿ ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة ﴾ لقد جعل الله تعالى الزّوجة سكنًا لزوجها والزّوج سكنًا لزوجه في المقابل وجعل عزّ وجلّ بين الزّوجين مودّةً ورحمة . قال تعالى[1] : ﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّةً ورحمة . إنّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون ﴾ . كما جعل الله تعالى البيت سكنًا لساكنه . قال تعالى[2]: ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنًا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتًا تستخفّونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين ﴾ والسّكَن السّكون وما يُسْكَن إليه[3] .

إنّ الله سبحانه وتعالى جمع لآدم عليه السّلام سكينة البيت ، وأيّ بيت ؟ إنّه الجنّة . وسكينة الزّوجة حوّاء عليها السّلام ، وسكينة إيتاء الله تعالى لهما كلّ ما يحتاجان ويتمنّيان . لقد عبّرت الآية الكريمة عن هذا النّوع من الإيتاء بالقول خطابًا لهما : ﴿ فكلا من حيث شئتما ﴾ ويلاحظ الابتداء بالفاء العاطفة . فبعد تأمين السّكين لهما عليهما السّلام يؤمران أمر إباحة بأن يأكلا من ثمار الجنّة من أيّ نوعٍ وفي أي مكانٍ منها ، باستثناء شجرةٍ واحدةٍ نهيا عن مجرّد الاقتراب منها . وإنّ الحديث عن الطّعام المكفول لهما في الجنّة حديثٌ ضمنيٌّ عن كلّ الأنواع الأخرى الّتي يحتاجان إليها ولا يستغنيان عنها . وفي جلب ما يحتاجان إليه من كلّ خير دفعٌ

---

(١) سورة الرّوم ٢١ .
(٢) سورة النّحل ٨٠ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « سكن » ٢٣٧ .

لكلّ شرّ . وعن هذه المعانى عبّرت هاتان الآيتان الكريمتان من سورة طه[١] : ﴿ إنّ لك ألاّ تجوع فيها ولا تَعْرَى . وأنّك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾ إنّ آدم عليه السّلام ـ وكذلك زوجه حوّاء عليها السّلام ـ لن يجوع فى الجنّة بل سيشبع ، ولن يعرى بل سيكون مكسوًّا و: « إنّما قرن بين الجوع والعري لأنّ الجوع ذلّ الباطن والعري ذلّ الظاهر »[٢] .

وإنّ آدم عليه السّلام لن يظمأ فى الجنّة بل سيروى ، ولن يضحى فى الجنّة ، بمعنى أنّه لن يحصل له حرّ شمس الضّحى لانتفاء الشّمس فى الجنّة[٣] : « وهذان أيضًا متقابلان . فالظّمأ حرّ الباطن ، وهو العطش ، والضّحى حرّ الظّاهر »[٤] .

فهل استطاع آدم عليه السّلام أن يمتثل لنهي الله تعالى له ، وكذلك زوجه ، عن مجرّد الاقتراب من شجرةٍ بعينها وإلاّ كانا من الظّالمين لأنفسهم بإيصال الأذى إليها. جاء فى سورة طه[٥] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم مِنْ قَبْلُ فنسى ولم نجد له عزماً ﴾ .

إنّ جلسةً شاعرةً فى حديقةٍ غنّاء يمكن أن تلهم بمثل هذا القول :

خضرة الأرض وزرقاء السّماءْ ونمير الماء يمشى فى التواءْ
وحبيب القلب يرنو فى وفاءْ هذه يا خلّ دنيا الشّعراءْ[٦]

وإنّ النّعيم المقيم الّذى كان يتقلّب فيه آدم وحوّاء عليهما السّلام لم يرض عنه اللّعين الّذى تكفّل بإغواء آدم عليه السّلام وزوجه حوّاء عليها السّلام وذرّيّتهما . ولم يكن اللّعين يجهل أنّ مهمّته صعبة وليست سهلة ، لأنّ طاعة اللّعين تعنى معصية الله تعالى ، لذا فقد لجأ اللّعين إلى أخبث وسائله من أجل إيقاع آدم وحوّاء عليهما السّلام فى حبائله . وإنّ الآية الكريمة التّالية تشير إلى أولى تلك الوسائل والحبائل فإلى .

---

(١) الآية ١١٨ و١١٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣ / ١٦٧ .
(٣) الجلالين .
(٤) تفسير ابن كثير ٣ / ١٦٧ .
(٥) الآية ١١٥ .
(٦) الرّباعيّة للباحث .

الآيـــة رقم (٢٠)

قال تعالى : ﴿ فوسوس لهما الشّيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكما ربّكما عن هذه الشّجرة إلاّ أن تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين﴾ .

كانت وسيلة إبليس اللّعين لإخراج آدم وحوّاء عليهما السّلام من الجنّة أن يغرّر بهما وأن يغريهما بما تهفو له كلّ نفس من مُلْكٍ أو خلود دون أن يكون لما يقول رصيدٌ من الواقع ، ودون أن يصطدم اللّعين الخبيث بنهي الله تعالى لهما عن مجرّد الاقتراب من الشّجرة .

إنّ اللّعين الخبيث علّل نهي الله تعالى لآدم وحوّاء عليهما السّلام بما يتمشّى مع نسيان الإنسان ، وميله الفطريّ للمُلك والخلود . وقد كرّر اللّعين الوسوسة والوعد بأن يكونا ملكين ومن الخالدين إن هما أكلا من الشّجرة . وفي زحمة الوسوسة والوعود ، وفي ضوء القَسَم بالله تعالى العظيم بأنّه لآدم وحوّاء عليهما السّلام لمن النّاصحين اقتربا معًا من الشّجرة وذاقا منها ، وعصيا الله تعالى .

والوسوسة الخَطْرة الرّديئة . وأصله من الوَسواس ، وهو صوت الحَلْي والهمس الخفيّ[1] ويقال : وسوس إذا تكلّم كلامًا خفيًّا يكرّره . ومنه وسوس الحَلْي[2] وكأنّ للوسوسة ما لصوت الحَلْي من جاذبيّةٍ وقدرةٍ على الولوج إلى الأعماق إن لم يكن ثَمّة العزم المستعين بالله تعالى المتوكّل عليه . ويلاحظ تقدم الجارّ والمجرور العائدين إلى آدم وحوّاء على لفظ الشّيطان في القول : ﴿ فوسوس لهما الشّيطان ﴾ إنّ الهدف من الوسوسة هنا أهمّ من القائم بها لذا تقدّم الجارّ والمجرور وتأخّر الفاعل على أنّ حقّه قاعديًّا التّقديم .

وتعيّن الآية الكريمة غاية اللّعين من إغواء آدم وحوّاء عليهما السّلام : ﴿ ليبدي

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « وسوس » ٥٢٢ . (٢) الكشّاف ١/٥٤٣ .

لهما ما ووري عنهما من سوآتهما ﴾ إنّ اللّام كما يقول النّحويّون لام العاقبة[١] إنّ عاقبة الوسوسة الّتى أضمرها اللّعين وقصدها غير ما أوهم به آدم وحوّاء عليهما السّلام وأفهمهما إيّاه . إنّ هدفه ليس أن يكونا ملكين أو أن يكونا من الخالدين إنّما هدفه أن يبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وسُتِر[٢] وأُخْفِى ، وما واراه الله عنهما من عوراتهما فغطّاه بستره الّذى ستره عليهما[٣] وعبّر عن عوراتهما بسوآتهما لأنّ انكشاف العورة ممّا يسوء صاحبها . وقد كُنِى عن الفرج بالسّوءة[٤] والسَّوْأة : الفرج والدّبر . ويشبه أن يُسَمَّى بذلك لأنّ منظره يسوء[٥] .

وما فحوى وسوسة اللّعين لآدم وحوّاء عليهما السّلام ؟ ما جاء فى الآية الكريمة: ﴿ وقال ما نهاكما ربّكما عن هذه الشّجرة إلاّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ﴾ .

إنّ اللّعين بقصد أن يتمكّن من التّغرير بآدم وحوّاء عليهما السّلام لا يعترض ، فيما يتعلّق بآدم وحوّاء عليهما السّلام ، على نهي الله تعالى لهما عن مجرّد الاقتراب من الشّجرة ، وقد علمنا أنّ اللّعين فيما يتعلّق به قد اعترض على أمر الله تعالى له أن يسجد لآدم عليه السّلام سجود تحيّةٍ وتعظيم . إنّ اللّعين يتجاوز النّهي إلى دغدغة عاطفتي آدم وحوّاء عليهما السّلام بالتّنبيه على الحكمة المزعومة من النّهي بشقّيها ، أن يكونا ملكين أو أن يكونا من الخالدين . ومن البيّن أنّ فى التّنبيه على هذه الحكمة المزعومة بشقّيها اعتراضاً من اللّعين غير مباشر على النّهي عن الاقتراب من الشّجرة ، وأنّ فى الاقتراب من الشّجرة والأكل منها مهما تكن المبرّرات عصياناً لله تعالى الّذى له وحده دون سواه الخلق والأمر . ومن البيّن أسلوب القصر الّذى يفهم منه حصر علّة النّهى فى هذين السّببين .

---

(١) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٣٠٨/٤ وتفسير ابن عطيّة ٤٥٧/٥ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « وري » ٥٢٠ . (٣) تفسير الطّبريّ ٨ / ١٠٤ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانىّ : « سوأ » ٢٥٣ .
(٥) تفسير ابن عطيّة ٤٥٨/٥ وانظر البحر والمحيط ٢٧٨/٤ .